فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع:	رقم الصفحة

الموضوع **رقم الصفحة**

جائزة دبي الدولية
للقرآن الكريم

سلسلة الدراسات القرآنية
(5)

أصل في قرص آخر

التصوير البياني
في حديث القرآن عن القرآن
دراسة بلاغية تحليلية

تأليف
د. عبدالعزيز بن صالح العمَّار

الطبعت الأولى
1427 هـ ـ 2006 م

الطبعة الأولى 1428 هـ - 2007 م

إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات
رقم (أ ع ش / 1500/2006م)

ما ورد في هذا الكتاب يُعبّر عن رأي صاحبه
ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة

سلسلة مُحَكَّمَة تصدرعن

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

DUBAI INTERNATIONAL HOLY QURAN AWARD

ص.ب: 42042 دبي - ا.ع.م.
هاتف: 2610666 9714+ ، فاكس: 2610088 9714+
موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae
البريد الإلكتروني: quran@eim.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل في قرص آخر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله، رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد نزل القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، ونطقه، وتجويده، وترتيبه، وتنظيمه، وقد تكفل الله بحفظ آياته وكلماته من التحريف والتغيير والتبديل فقال في سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ جعله الله المعجزة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، فأعجز البشر أن يأتوا بسورة من مثله فقال في سورة البقرة﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وقد تناول العلماء هذا الكتاب العظيم بالدراسة والتمحيص، فاستخرجوا منه الكنوز الثمينة، وأسسوا في ظلال آياته قواعد علومهم، وقد أظهرت كثير من الاكتشافات العلمية المعاصرة حقائق مذهلة سبق القرآن إلى ذكرها أو الإشارة إليها، ولا بد من أن تجد التطابق بين ما قاله الله وما خلقه، كما قال تعالى في سورة فصلت ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ ويسر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم أن تسهم في خدمة هذا القرآن العظيم، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية سلسلة الدراسات القرآنية تعميماً للثقافة القرآنية وإن اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم لتقدم شكرها إلى مؤلف الكتاب وإلى كل من ساهم في إخراجه وطبعه ونشره وتوزيعه. سائلين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل في صحيفة صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي وراعي جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

اللجنة المنظمة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلاله وكماله، وشكراً له يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، حمداً له ـ سبحانه ـ وشكراً أن فضَّلنا بالقرآن الكريم على الخلق أجمعين، وآتانا ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، أنزله علينا هداية ومنهاجاً، والصلاة والسلام على مَن كان خلقه القرآن، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء اختياري للكتابة في هذا الموضوع؛ لأهميته، وجليل شأنه في الدراسات البلاغية، فللبيان منزلة عظمى في سماء البلاغة؛ لتشعب مباحثه، وكثرة أبوابه وفصوله التي من شأنها أن تُبرز المعنى وتظهره في أبهى حلة، وأحسن صورة؛ لما يتميز به هذا العلم من إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، فيمدُّ علم البيان المتكلمَ شتى فنون التعبير الجميل عن المعنى القائم في نفسه، ومن ثَم يتخير منها ما يشاء في إظهار مقاصده ومعانيه، من تشبيه ومجاز، ومن كناية وتعريض، وهذا مكمن حسن هذا الفن، وخاصية تميز بها عن سائر علوم البلاغة.

ولن يكون حديثي عن علم البيان في هذا الكتاب نظرياً، كما لن يكون على وجه العموم كذلك فسأقيد هذه الدراسة في الآيات التي تحدثت عن القرآن الكريم المتضمنة هديه، وبيان ما اشتمل عليه من الخير والهدى، المبينة كذلك حال الناس مع القرآن، وانقسامهم معه، وهذا ما يميز هذه الدراسة، ويطبعها بشيء من الخصوصية والتمييز، ويُفضِّلها عن غيرها من الدراسات التي تتناول علم البيان بعامة.

كما أن هذه الدراسة قائمة على التحليل للآيات القرآنية التي تحدثت عن القرآن الكريم، وهذا الأمر من الأهمية بمكان في الدراسات البلاغية، فمهم جداً أن تُعنى الدراسات البلاغية بالجانب التطبيقي، فإن في ذلك ثباتاً للقاعدة في ذهن المتلقي، ونشاطاً لعقله، وتحريكاً له، وطرداً للسامة والملل الذي قد يتسلل إليه بسبب التلقين والإملاء، وهذا ما ينبغي أن تتجه إليه الدراسات البلاغية، في التأليف، وفي الدرس البلاغي.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام الإشارة إلى أهمية السياق، وبيان أثره في دراسة هذه الأساليب البيانية، وذكر بلاغتها، وأثرها في المقام الذي وردتْ فيه؛ وذلك أن للسياق أثراً بارزاً في الكشف عن المعنى، والدلالة عليه، ومن هنا فلا ينبغي إغفاله أبداً في الدراسات البلاغية، أو الاقتصار على موطن الشاهد ، فإن في هذا الصنيع تجزئة للعمل الواحد، وبتراً

للأسلوب البلاغي من السياق الذي ورد فيه.

يتحتم هذا الأمر ويتعين حين ننظر في بلاغة هذه الأساليب في كلام الله ـ عزَّ وجل ـ أو في كلام رسوله ﷺ فإن لعلم البيان في كلامهما شأناً آخر تتعين الحفاوة به، وتتطلب مزيداً من النظر والتدقيق، ولذا فإني لن أغفل السياق في هذه الدراسة، وسأصحبه معي في تحليل النصوص؛ للوقوف على أسرار هذه الأساليب البلاغية، ونكتها البيانية.

وبعد: فهذا ما سأسعى إلى تحقيقه والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه ـ سبحانه ـ وتكرم، وإن كانت الأخرى فحسبي أن بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي ـ أيضاً ـ أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب.

وثمة أمر أخير أتوجه به إلى من قرأ هذا الكتاب، ونظر فيه أن يدعو لمن كتبه وأخرجه، كما أطلب منه ـ تكرماً ـ التسديد والتوجيه، والنقد والرد، وذكر ما عنَّ له من نقص، وبيان ما بدا له فيه من قصور، فإني متقبل ذلك كله بصدر رحب، شاكر له كل الشكر.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

عبدالعزيز بن صالح العمَّار

توطئة

التصوير البياني:

تحدث العلماء قديماً وحديثاً عن الصورة في العمل الأدبي، وتباينت آراؤهم، واختلفت

في بيانها، وتحديد المراد بها، فكان لكل نظرته الخاصة به، وفهمه المعين لها.(1)

وعند الرجوع إلى المعجمات التي تُعنى بذكر هذا المصطلح وضبطه نجد أن المراد بها: تلك اللوحة الفنية الرائعة التي ترسمها مخيلة الأديب باستخدام الألفاظ، كما ترسمها ريشة الفنان.(2)

وهذه الصورة تعتمد في تكوينها على العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، فليست هي اللفظ بمفرده شكلاً فارغاً رناناً، ولا المعنى بذاته مضموناً مجرداً، ولكنها الخصائص المشتركة بينهما، التي تقدم شخصية النص الأدبي، وتميِّزه عن غيره من النصوص بما تحمله من أحاسيس وانفعالات، ربما لا يُوحي بها ظاهر اللفظ، ولا يحققها مجرد المعنى، ولكنها مزيج بين دلالة اللفظ، وإيحائية المعنى، في تحقيق نموذج أدبي.(3)

وعند النظر في هذه الصورة نجد أنها ((تستقي حيثياتها من علم البيان كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية وغيرها))(4)، وبهذه الصورة البيانية تظهر بلاغة الأديب إذ يستطيع من خلالها تأدية معانيه بأساليب شتى، حسب ذوقه وأدبه، وعلى حسب مقتضى الحال الذي تُذكر فيه هذه الصورة.

ولا يخفى أثر الصورة في سياقها، وفي أداء المعنى المنوط بها، وفي نفوس المتلقين. كذلك. فهي تكسب المعنى رونقاً وبهاء، وتجعله أقوى أثراً وتأثيراً، إذ ((لا ريب أن هناك فرقاً بين أن تفيض الكلمات بالمعاني والمقاصد، وأن تفيض بها الأحداث والصور، فرق بين ما تدل عليه لفظة (الشجاعة) وما تدل عليه صورة (الأسد) ببطشه وإقدامه وبأسه وشدته، المعاني التي تفيض بها الأحداث والصور أغزر وأبين وأمكن)).(5)

---

(1) انظر: الصورة الفنية في المثل القرآني: 21، د.محمد حسين علي الصَّغير، فقد ذكر كثيراً من التعريفات والآراء عن الصورة للعلماء في القديم والحديث.

(2) انظر: المعجم المفصل في الأدب:591، د. محمد التونجي.

(3) الصورة الفنية في المثل القرآني: 35.

(4) المعجم المفصل في الأدب: 591.

(5) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان: 22، د. محمد محمد أبوموسى.

أما ما يتعلق بالقرآن الكريم فإن له طبيعته الخاصة به في مجال التصوير البياني في عرض المشاهد المختلفة، والموضوعات المتعددة، فهو لا يعتمد على إثارة الفكر وحده ليُقنِع، بل يتجه بكل طاقات اللفظ، ويستخدم جميع السبل والطرق كي يثير وجدان القارئ أو السامع إثارة روحية، رفيعة المستوى، فتتأثر التأثر التام من القرآن.[1]

وتعبير القرآن بالتصوير البياني عن مقاصده وأغراضه يُعد ـ ولا شك ـ مظهراً من مظاهر إعجازه، وصورة من صور التحدي التي تحدّى الله به العرب، وأعجزهم به.[2]

وقد بيَّن سيد قطب خاصية القرآن في استخدامه لهذه الصورة قائلاً: ((التصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن الكريم، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشرية مجسَّمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل))[3]، ثم يزيد لهذا لتصوير إيضاحاً مبيناً أنه ليس حلية أسلوبية يُزين بها الأسلوب، كما أنها لا تأتي في القرآن كيفما اتفق، كلا ((وإنما هو مذهب مقرَّر، وخطة موحدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معينة، يَفْتَنُّ في استخدامها بطرائق شتى، وفي أوضاع مختلفة، ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة: قاعدة التصوير)).[4]

وسأقف في هذا الفصل مع ما يكون في آيات حديث القرآن عن القرآن من فنون علم البيان للوقوف على ما تمَّ فيها من تشبيه ومجاز وكناية وتعريض، ومن ثَم النظر في ما تحققه هذه الفنون من تجلية لمضمون تلك الآيات في حديثها عن القرآن في مجالاتها المختلفة، وللنظر ـ كذلك ـ في رونق هذه الآيات وبهائها التي كساها التصوير البياني بها.

---

(1) انظر: النبأ العظيم: 113.
(2) انظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: 443.
(3) التصوير الفني في القرآن: 36.
(4) المصدر السابق: 37.

علم البيان:

عند الرجوع إلى معنى البيان لغة نجد أن أصل هذه المادة تدور حول الظهور والوضوح، يُقال: بان الشيء: إذا اتضح، فهو بيِّن، واستبان الشيء: بمعنى ظهر، فالبيان ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها، والبيان الفصاحة واللَّسن، وكلام بيِّن أي فصيح، والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبيِّن من الرجال: الفصيح.(1)

فالبيان إذن الإظهار والإيضاح بأي أمر كان يدل على هذا قول الجاحظ في تعريفه للبيان، يقول:

((البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغتَ الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع)).(2)

ومن هذه المعاني اللغوية جاء حدُّ البيان في اصطلاح البلاغيين، فهو ـ كما عرفه الخطيب ـ ((العلم الذي يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، في وضوح الدلالة عليه)).(3)

وعند الوقوف مع هذا التعريف والتأمل فيه، يتضح منه ثلاثة أمور: سبب تسميته بهذا الاسم، ومفارقته لعلم المعاني والبديع، وفائدة هذا العلم، وأثره في بلاغة الكلام.

فأما سبب تسميته بهذا المصطلح؛ فلأن لهذا العلم مزيد تعلق بالوضوح والبيان، إذ يُعرف من خلاله الطرق التي تؤدي المعنى، وتكشف عن مضمونه، والمراد منه بأوضح دلالة، وذلك أن هذه الدلالات متفاوتة فيما بينها في الكشف عن المراد بها، وفي تجلية المعنى.(4)

وبهذا المفهوم لعلم البيان تظهر مفارقته لعلم المعاني؛ وذلك أن علم المعاني يبحث في

---

(1) لسان العرب: مادة: بين.

(2) البيان والتبيين: 76/1.

(3) الإيضاح: 2/3، وقد أفاض شراح التلخيص في شرح هذا التعريف، وذكروا المراد بوضوح الدلالة، وأنواعها، كما ذكروا سبب تقديم علم المعاني عليه، والعلاقة بينهما، انظر: 256/3.

(4) انظر: معجم البلاغة العربية: 97، د. بدوي طبانة.

بناء الجمل حتى تتناسق أجزاؤها تناسقاً يطابق مقتضى الحال[1]، فكأن علم المعاني متقدم على علم البيان؛ وذلك أن علم المعاني . وهو النظم . يتم فيه ترتيب المعاني في النفس لتكون منسجمة موافقة لما نريد الحديث عنه على حسب أهميته، والغرض منه، فإذا ترتب جاء علم البيان ليبين لنا الطرق المختلفة التي تُؤدي هذه المعاني التي في نفوسنا بطرق تُحدِث في نفوسنا أثراً، وتسمو بعواطفنا، فالبيان هو ذلك العلم الذي من شأنه أن يهز أعطاف النفوس، ويستثير كوامنها.[2]

وتتنوع طرق التعبير عن المعنى المراد في علم البيان بين التشبيه والمجاز والكناية والتعريض، ولكل طريق من هذه الطرق المتعددة ما يميزها عن غيرها، وستتضح هذه الطرق، وتظهر بلاغتها من خلال الوقوف مع كل واحد من هذه الطرق، وذلك من خلال آيات حديث القرآن عن القرآن.

(1) انظر: علم البيان دراسة تحليلية لمسائل علم البيان:10، د. بسيوني عبدالفتاح فيود.

(2) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 12/2.

المبحث الأول: التشبيه

التشبيه لغة يعود إلى أصل هذه المادة: الشين والباء والهاء، وتدور حول تشابه الأشياء وتشاكل بعضها مع البعض الآخر في صفات معينة(1)، والشبه هو المثل، يُقال: شابه الشيءَ إذا ماثله.(2)

ومن المعنى اللغوي لهذه المادة جاء تعريف التشبيه لدى علماء البلاغة، فقد ذكر كل من عرَّف التشبيه أنه اشتراك قائم بين شيئين في صفة معينة، وإن اختلفت عباراتهم في هذا التعريف(3)، فقد عَرَّفه الخطيب بقوله « التشبيه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى »(4)، وأوضح من هذا التعريف ما ذكره الطوفي في كتابه (الإكسير)، فقد عرف التشبيه أنه « إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها، واختلفا في كيفيتها قوة وضعفاً ».(5)

وإن تعددت تعريفاتهم له، واختلفوا إلاَّ أنهم أجمعوا على أهميته وأثره في الكلام، فقد اتفقوا على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة؛ وذلك « أنه يزيد المعنى وضوحاً، ويُكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه».(6)

ولا غرو أن يكون للتشبيه هذه المكانة، وتلك المنزلة، فقد كثر وروده في كلام العرب،

---

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة: مادة: شبه.

(2) انظر: لسان العرب: مادة: شبه.

(3) للوقوف على هذه التعريفات، وللاستزادة منها، انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 324، و: أدوات التشبيه: دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم: 8، د. محمود موسى حمدان، وغيرهما .

(4) الإيضاح: 6/3.

(5) الإكسير في علم التفسير: 132.

(6) الصناعتين: 249.

واستخدامهم له في مواضع متنوعة، ومقامات متعددة، ولا عجب في هذا فكلما جاء التشبيه في أعطاف المعاني أفادها كمالاً، وكساها حلَّة وجمالاً، ولعبد القاهر وقفة مع التشبيه، بيَّن فيها مكانته ومنزلته في البلاغة، يقول: ‹‹ واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ››.(1)

فهذا أثر التشبيه في الكلام، وتلك منزلته في البلاغة بعامة، وأما تشبيهات القرآن فقد تفردت عن غيرها، وتميزت بعدة خصائص؛ وذلك ‹‹ أن لها مقاصد عظيمة، ومضمَّنة لأغراض جليلة، يعقلها من ظفر في هذه الصناعة بأوفر حظ، وكان له فيها أدنى ذوق، وحام حول تلك الدقائق بذهن صافٍ عن كدود البلادة ››(2)، ولا غرو أن يكون لهذا التشبيه في القرآن العظيم هذه المكانة، وتلك المنزلة؛ وذلك أنه ‹‹ ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله في الجملة أنه يُعطي الفكرة في صورة موضحة مؤثرة، فهو لا يمضي إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح قوياً واضحاً ››.(3)

وسيتضح أثر التشبيه وبلاغته من خلال الوقفات التحليلية البلاغية في حديث القرآن عن القرآن، المشتملة على التشبيه لنرى من خلالها أسراره البلاغية وجمالياته، يقول الله ـ تعالى ـ مبيناً حال من يُعرض عن القرآن، ويستكبر عنه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: 7).

(1) أسرار البلاغة:115، عبدالقاهر الجرجاني.
(2) الطراز: 330/3.
(3) من بلاغة القرآن: 198.

يذكر . سبحانه . موقفه هذا بعدما بيَّن أنه يشتري لهو الحديث، ويُقبل عليه في الآية التي قبلها، في قوله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (لقمان: 6)، وفي هذا بيان لحالة هذا الرجل، وكشف لها، فهو مع آلات اللهو والمعازف والغناء إقبال عليها، وتمسك بها، ويدفع من أجل الحصول عليها كل غالٍ ونفيس، كما يُوحي بهذا المعنى لفظة ﴿ يَشْتَرِى ﴾ فهو يبذل الأموال للحصول عليها، ويكابد في ذلك المشقة والعنت من أجل الظفر بها، أما آيات الله فإنها تُعرض عليه وتأتيه وهو في مكانه دون أن يسعى إليها ومع ذلك يعرض عنها ويستكبر كفراً بها، وجحوداً لها وإنكاراً، وذلك هو الشقاء بعينه، والضلال المبين.

وقد جاء نظم الآية وأسلوبها مصوراً هذا المعنى أتم تصوير، وذلك من خلال ما يلي:

1. بداية الآية بأسلوب الشرط ، وقد بيَّن هذا الشرط . بما تضمن فعله وجوابه . واقع هذا الرجل مع الآيات التي تُتلى عليه، فما إن يسمع الآيات تُتلى على مسمعه إلاَّ وتراه يعرض عنها، ويتولى مستكبراً عن سماعها ولا يعقِّب، فقد ارتبط استكباره بالآيات، وهذا من فرط عناده، وشدة استكباره؛ وذلك أن هذه الآيات من شأنها أنها تجعل الناس يقبلون عليها، ويصغون لها، بخلاف هذا الرجل.

2. مجيء لفظة ﴿ تُتْلَىٰ ﴾ فعلاً مضارعاً، وفي ذلك إتمام للمعنى السابق، وإكمال له؛ وذلك أن مجيئه بهذه الصيغة دلالة على تجدد حدوث هذا الاستكبار، وتكرر وقوعه منه، وفي هذا مزيد تشنيع وتسفيه له.

3. بناء الفعل ﴿ تُتْلَىٰ ﴾ للمجهول، وفي ذلك دلالة على ما يكنُّه هذا الرجل من الحقد والبغض للآيات، فهو يفرُّ منها، ويستكبر عنها لذاتها، ولِمَا انطوى فيها، إذ لو كان هذا الفعل مبنياً للمعلوم لظُنَّ أن موقفه هذا نحو الآيات بسبب كرهه وبغضه لتاليها، ولكن أمَا وقد بُني الفعل للمجهول فقد تبين أن هذا البغض والعداء لذات الآيات نفسِها، وفي هذا إشارة إلى ما انطوى عليه قلبه من الحقد والكفر بها، كما أن في هذا مزيد إنكار عليه،

وتعظيماً لهذا الجرم، وتفظيعاً له.

4. الإضافة في قوله ﴿ ءَايَـٰتُنَا ﴾ ، وفيها مزيد من إظهار جرم هذا الرجل، والإنكار عليه؛ وذلك أن هذه الآيات التي يستكبر عنها هي آيات الله، يدل على هذا المعنى إضافتها إليه ـ سبحانه ـ في قوله ﴿ ءَايَـٰتُنَا ﴾ ، وفي هذه الإضافة تعظيم للآيات، وتشريف لها، ورفعة من قدرها ومكانتها، ومع هذا كله فلا يلقي لها بالاً، ولا يلتفت إليها، تكبراً عنها، وترفعاً عما جاء فيها، يدل على هذا المعنى، ويشير إليه ـ أيضاً ـ لفظة ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ ـ بمجيئها بهذه الصيغة ـ ففي صيغةِ الاستفعال مبالغة في إثبات هذه الصفة الذميمة له، ونعته بها[1]، فهذه هي حالته مع هذه الآيات، فقد أدبر عنها، وأعرض عن هداياتها، والعمل بها، ولم يرفع بها رأساً.

5. التشبيه في قوله ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: 7)، وقد جاء التشبيه لينجلي موقفه من الآيات أتم تجلية، وتتضح حالته أتم إيضاح مع القرآن الكريم، فكأن هذا الرجل المعرض عن الآيات المستكبر عنها لم يسمع أصلاً هذه الآيات، فقد شُبه هذا الرجل ـ الذي هذه حالته، وهذا موقفه من القرآن ـ بالذي لا يسمع الآيات، فحالته بعد سماع الآيات كحالته تماماً قبل سماعها، وتلاوتها عليه؛ وذلك لعدم تأثره بهذه الآيات، والانتفاع بها، فسماع هذه الآيات دون قبول حكمها، والعمل بما جاء فيها في حكم العدم.[2]

وفي هذا التشبيه دلالة على عِظم الآيات وما اشتملت عليه، إذ جدير بكل من استمع القرآن، وأصغى إليه أن يُقبل عليه، ويتأثر به؛ لِمَا في تضاعيفه من الأمور الموجبة للإقبال عليه، والخضوع له، وأن يُكسبه القرآن رقة وتواضعاً، ولا يتصور أبداً أن يعرض عنه

(1) انظر: روح المعاني: 8/21.

(2) انظر: حاشية القونوي: 496/6.

أحد، ويستكبر عنه بعد سماعه لآيات القرآن[1]، فإذا حدث هذا كان من صدر منه هذا الفعل بمنزلة الذي لم يسمع الآيات أصلاً، إذ لو سمعها لما كان هذا موقفه من هذه الآيات، وهذه هي دلالة التشبيه في هذا السياق، ومن هنا يتضح أثر التشبيه ودلالته في حديث القرآن عن القرآن، فقد أبان عن مكانة القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من الهداية والبصائر، كما أبان عن موقف من أعرض عنه، وكشفه على حقيقته، وما هو عليه من الضلال والإعراض.

ولمزيد من إيضاح موقف هذا الرجل المعرض عن هذه الآيات، والكشف عن حقيقته، وذكرِ حاله ذَكَرَ ـ سبحانه ـ تشبيهاً آخر لهذا المعرض عن الآيات المستكبرعنها، فقد شُبه ـ أيضاً ـ بمن في أذنيه وقر، وهو الثقل والصمم، المانع من السماع في قوله ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ ﴾ (لقمان: 7)، ومن كانت هذه حالته فأنى له أن يلتفت إلى هذه الآيات، أو أن يصغي إليها؟! فضلاً أن يقبل عليها، أو أن يتأثر بها، أو ينتفع بما جاء فيها.

وقد فُصلت هذه الجملة عن التي قبلها؛ وذلك أن بين الجملتين كمال الاتصال، فقد جاءت الجملة الثانية مؤكدة ومقررة للجملة التي قبلها، فهي وثيقة الصلة بها، ومرتبطة بها ارتباطاً قوياً يتعذر معه دخول العاطف بينهما المشعر بتغاير هاتين الجملتين، وانفصالِ كل واحدة عن الأخرى، وذلك أن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقرٌ هو المقصود بعينه من التشبيه بالذي لم يسمع الآيات، كما أن انعدام السمع دلالة على وجود المانع من وصولها إليه، وهذا المعنى هو الذي جاءت به الجملة الثانية حين بيَّنتْ أن في أذنيه وقراً، ومن هنا فُصل بين الجملتين دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

والمتأمل في هذين التشبيهين ليلحظ الترقي في وصف هذا المعرض المستكبر عن آيات الله، فقد اقتُصر في الجملة الأولى على تشبيهه بحال من لا يسمع الآيات، ثم جاءت الجملة الثانية بتشبيه هذا المعرض بحال من فقد السمع كلية؛ وذلك لوجود الوقر في أذنيه، فالجملة الأولى بيَّنتْ أن سمعه سليم مُعافى إلاَّ أنه لا يسمع الآيات، ولا يصغي لها إعراضاً عنها

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 69/8.

وتكبراً، وهذا بخلاف الجملة الثانية التي بيّنتْ أن هذا المعرض فاقد السمع لا يتمكن منه، ولا يستطيعه، ولا يخفى أن هذا أبلغ في الذم والتقبيح؛ وذلك أن فيها إثبات هذه الصفة له إلى الأبد، ونعته بها، فسيظل دائماً وأبداً معرضاً مستكبراً عن هذه الآيات؛ وذلك أنه صار لا يسمع ، وحلَّ الوقر في أذنيه، وأنى لفاقد السمع أن يسمع ويصغي؟!

يدل على هذا المعنى ويشير إليه مجيء ﴿ كَأَنْ ﴾ في التشبيه الأول مخففة، بخلاف التشبيه الثاني فقد جاءت مشددة ثقيلة، فكأنَّ في هذا التشديد والثقل إشارة إلى ثقل الوقر في أذنيه، حتى منعته من سماع الآيات، والانتفاع بها، بخلاف (كأنْ) في التشبيه الأول، فقد جاءت مخففة، وتخفيفها يتلاءم مع وجود السمع، فهو وإن كان معرضاً عن الآيات إلاَّ أن سمعه باقٍ لم يفقد.(1)

كما أن التخفيف في التشبيه الأول إشارة إلى أن استكباره عن الآيات، وتوليه عن سماعها أمر ظاهر غير خافٍ، فلم يكن ـ والحالة هذه ـ بحاجة إلى تأكيد هذا الأمر الظاهر البيِّن، كما أن فيه إشارة إلى تهوين شأن هذا المعرض، والحط من قدره، وعدم الاكتراث به، والاعتداد بأمره، وهذا بخلاف التشبيه الثاني فقد جاء مؤكداً مشدداً ففيه إشارة إلى أن إعراضه واستكباره عن آيات الله متمكن منه، ومسيطر عليه، فكانت حالته كالأصم الذي لا يسمع أبداً لوجود الوقر في أذنيه.(2)

يدل على هذا المعنى ويؤكده نظم الجملة في التشبيه الثاني، يتضح هذا من تقديم خبر إن (في أذنيه) وتأخير اسمها وتنكيره ﴿ وَقْرًا ﴾ ففي هذا التقديم إشارة إلى مكمن الوقر ومحله، وفي هذا دلالة على أن إعراض هذا المتكبر عن الآيات، وتوليه عن سماعها إنما هو لسبب راجع إلى أذنيه، وما فيهما من الثقل والصمم، وليس لأمر كائن في هذه الآيات البليغات العظيمات، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

(1) انظر: من بلاغة النظم القرآني: 266.

(2) انظر: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم : 224.

(الكهف: 57)، فبسبب كفرهم، وإعراضهم عن آيات ربهم عاقبهم ـ سبحانه ـ بهذا الوقر، فهم الذين عطَّلوا الأذن عن وظيفتها الحقيقية، وهي سماع آيات الله وتدبرها، والعمل بها، والانتفاع بما جاء فيها.

كما أن تأخير اسم إن ﴿ وَقۡرٗا ﴾ وتنكيره دلالة على عظم الوقر، وتهويله، فهو وقرٌ بالغ يتعذر معه إدراك المسموعات، فضلاً عن الاهتداء بها، أو الانتفاع من مواعظها.

وقد جاءت أداة التشبيه في كلا الجملتين ﴿ كَأَنَّ ﴾ ، ولهذا الحرف دلالته في التشبيه، وفي تحقيق الغرض المنوط به، وذلك ((أن التشبيه بـ ﴿ كَأَنَّ ﴾ فيه من المبالغة والتأكيد ما لا يكون مع الكاف، لذا فهي تُستعمل حيث يقوى الشبه، حتى يكاد الرائي يعتقد أن المشبه هو المشبه به لا غيره، ولذا قالت بلقيس عندما رأت العرش ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ (النمل: 42)))[1]، يدل على أن التشبيه بـ﴿ كَأَنَّ ﴾ فيه تأكيد ومبالغة: الآية التي معنا، فحين ننعم النظر فيها ونتأملها نجد أن فيها تأكيداً ومبالغة في وصف حالة هذا المعرض المستكبر، وبياناً له أتم بيان، وذلك من خلال ذكر موقفه من القرآن، وتفصيل هذا الموقف مرتباً من الأدنى إلى الأعلى، فقد ذكر ـ سبحانه ـ لهذا المعرض عن الآيات أربع مراتب:

الأولى: توليه عن الآيات، وإعراضه عنها، وحسبك بهذه الصفة قبحاً وتنفيراً.

الثانية: التكبر عنها، فهو يتولى عن الآيات ويزيد الأمر سوءاً بتكبره عنها، فهو كما ذكر الله عنه (ولي مستكبراً).

الثالثة: عدم الالتفات إليها والإصغاء لها، وأُشير إلى هذا بقوله ﴿ كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ﴾ (لقمان: 7).

الرابعة: الإيغال في الإعراض عنها، حتى كأن في أذنيه وقراً، وإلاَّ فما الذي يدعوه إلى

---

(1) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم: 209، ويحسن الرجوع إلى هذا الكتاب للوقوف على الفروق المعنوية بين حروف التشبيه، ودلالة كل حرف بسياقه، وارتباطه بمعناه انظر (أدوات التشبيه: دلالاتها، واستعمالاتها في القرآن).

الإعراض، وذلك التكبر؟! [1]

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ حالة هذا المعرض عن القرآن، وتكبره عن سماعه، ذكر بعد ذلك جزاءه، وبيَّن المآل الذي سيؤول إليه، والعذاب الذي ينتظره في الآخرة، في قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: 7)، أي توعد يامحمد ﷺ هذا الذي أعرض عن آياتنا، وتكبر عنها بعذاب أليم شديد، يدل على عظم العذاب وشدته تنكير لفظة ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ ففيه تعظيم لهذا العذاب، وتهويل له، فهو عذاب موجع، وقد دلَّ على عظم العذاب وشدته وصفه بقوله ﴿ أَلِيمٍ ﴾ فهو عذاب مؤلم موجع يقضُّ مضجعه، فهو عذاب ((مؤلم لقلبه وبدنه، لا يُقادر قدره، ولا يدرى لعظم أمره، فهذه بشارة أهل الشر، فلا نعمت البشارة)).[2]

كما أن عظم هذا العذاب دلالة على عظم الذنب الذي اقترفه، فلما كان ذنبه عظيماً كان عقابه عظيماً أليماً، فالجزاء من جنس العمل، وفي هذا دلالة على عظم القرآن الكريم، وعلو قدره ومنزلته، يتبين هذا من خلال ما ترتب على الإعراض عنه، والتكبر عليه من العذاب الأليم.

وفي قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: 7)، استعارة تهكمية، وقد ناسب هذا التهكم وتلك السخرية حال ذلك المعرض المتكبر، ففي هذه الاستعارة التهكمية تحقير له، وحط من قدره وشأنه ـ إن كان له شأن ـ ومن هنا ناسب أن تُختم الآية بهذه الاستعارة التهكمية.

● وفي موضع آخر ـ ومع حديث القرآن عن القرآن ـ يبين ـ سبحانه ـ موقف المشركين جميعاً من القرآن، مصوراً إعراضهم عنه، واستكبارهم عما جاء فيه، يقول الله ـ تعالى ـ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢ ﴾ (المدثر: 49 ـ 52).

بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري لحالهم وواقعهم مع القرآن الكريم، وتعجباً من الإعراض عنه، يدل على التعجب منهم والإنكار عليهم: الاستفتاح بهذه الصيغة (فما لهم)

---

(1) انظر: التفسير الكبير: 141/25.

(2) تيسير الكريم الرحمن: 104/4.

فقد كثر مجيئها في القرآن دلالة على التعجب والإنكار، كما في قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الانشقاق: 20)، والمراد منها: التعجب من إصرارهم على باطلهم، ومن إعراضهم عن الحق والذكر، وترفعهم عنه، مع وضوح الدلائل والبينات التي ترشد إلى صدقه، وتدعو إلى الإيمان به، والإقبال عليه.[1]

وقد زاد هذا الاستفهام تعجباً وإنكاراً أن الذي أعرضوا عنه تذكرة لهم، جاء لهدايتهم وصلاحهم، ودعوتهم إلى كل ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فكيف يعرضون عن هذه التذكرة ومن حقها الإقبال عليها، والإيمان بها، والإصغاء إليها، فإعراضهم عنها . والحالة هذه . لأمر عُجَاب، ومن هنا جاء الاستفهام الإنكاري التعجبي دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

وقد تقدم الجار والمجرور (عن التذكرة) على متعلقه ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ وفي هذا بيان للأمر الذي أعرضوا عنه، ومبادرة في ذكره، والكشف عنه، كما أن فيه اهتماماً المقدَّم، وعناية به عناية بالغة، فيكون في هذا التقديم دعوة لهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه، وعدم الإعراض عنه، فإذا كان هذا هو قدر هذه التذكرة، وتلك منزلتها، فكيف يليق بهم بعد هذا الإعراض عنها، والكفر بها؟! فيكون في هذا التقديم لمزٌ لهم وغمزٌ من طرف خفي، وتسفيه بهم وبعقولهم، إذ جهلوا قدر هذه التذكرة، وما رعوها حق رعايتها.[2]

وفي مجيء لفظة ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ اسماً دلالة على ثبوتهم ودوامهم على هذا الإعراض، وفي ذلك دلالة على الكفر المتأصل في قلوبهم، وعلى ذلك البغض والحقد على القرآن الكريم، ومَن جاء به، فلو كان هذا الكفر، وذلك الإعراض أمراً طارئاً لزال بزوال أسبابه ودواعيه،

---

(1) انظر: التفسير الوسيط: 270/15.

(2) ومن هنا يتبين سرُّ هذا التقديم، ودلالته في المقام الذي ورد فيه، وأثره في أداء معانيه، فلم يكن الغرض منه مراعاة الفاصلة، والمحافظة عليها، كما قال بهذا القونوي في حاشيته (انظر: 319/7) فالقرآن ببلاغته وإعجازه أجل من أن يُقدم ويُؤخر لغرض لفظي لا علاقة له بالغرض الذي سيقت الآية من أجله، والله أعلم.

ولكنَّه ـ والعياذ بالله ـ متأصل في تلك القلوب، ثابت فيها لا يحول عنها ولا يزول.

كما في مجيئه اسماً ذم لهم، وبيان لموقفهم الثابت مع القرآن، وهو الإعراض عنه، بكل ما تحويه هذه اللفظة (معرضين) من دلالات وإيحاءات، فلك أن تسرح طرفك في هذه اللفظة، وتنعم النظر فيها لتتبدى لك منها كثير من المعاني التي تدل على هذه الصفة وتؤكدها، وذلك أن في هذه اللفظة إيجاز قِصَر، فهي تشمل كل معنى من معاني الإعراض عنه، وهجره، فهو إعراض عن سماعه والإصغاء إليه، وإعراض عن الإقبال عليه وتدبره وتأمله، كما أنه إعراض عن الإيمان به، والتصديق بآياته.

كما في هذه اللفظة ﴿ مُعۡرِضِينَ ﴾ تصوير وتجسيد لهذا العمل المشين، فقد رسمت هذه اللفظة بظلالها، وبما تلقيه في خيال السامع صورة هؤلاء القوم وهم يعرضون عن القرآن، فكأنك تراهم شخوصاً ماثلة أمام العين، وهم يعرضون عن القرآن، ويديرون له أدبارهم، إعراضاً واستكباراً، وحسبك بهذا العمل جهلاً منهم وسفاهة، وإلاَّ فهل يعرض عاقل عن كتاب جاءه بخيري الدنيا والآخرة، وبذكره وشرفه ورفعته في الدارين، فأنى لهم العقل بعد هذا الفعل؟!

إذن فهذه هي حالتهم مع القرآن، وهذا موقفهم منه، إعراض عنه، وكفر به، ولإيضاح صورة هذا الإعراض، وبيانه أتم بيان، ذكر ـ سبحانه ـ تشبيه هؤلاء المعرضين عن القرآن بالحُمُر، في قوله: ﴿ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝ ﴾ (المدثر: 50 - 51)، أي كأن هؤلاء القوم في إعراضهم عن القرآن، ونفارهم منه كالحمر حين تفر ممن يريد صيدها والفتك بها، فانظر إلى هذه الصورة البيانية الرائعة التي صورت حال القوم، وهم يفرون من الداعي، ويعرضون عن الحق، ويترفعون عنه، بيد أن هذا الإعراض، وذلك الفرار لا يزيدهم إلاَّ حيرة واضطراباً، فما أشبههم بالحمر الوحشية النافرة الشاردة التي تهيم على وجهها فارّة من أسد يريد افتراسها.[1]

(1) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 96/2.

وفي هذا التشبيه أسرار بلاغية جمة، ونكت بيانية، فقد شُبه القوم في إعراضهم عن القرآن، ونفورهم منه، بالحمر، فما السرُّ في اختيار الحمر هنا دون سواها من الحيوانات؟ جاء تشبيه هؤلاء المعرضين بالحمر إشارة إلى بلوغهم الغاية القصوى في الجهل والبلادة والغباء، إذ يُضرب بالحمر المثل في الحمق والبلادة[1]، وهل ثمة أشد حمقاً وغباء ممن يعرض عما فيه نجاته، وفلاحه وسعادته في الدنيا والآخرة ، فإعراض هؤلاء المشركين عن هذه التذكرة دلالة واضحة على شدة غبائهم، وفرط بلادتهم، وإلاَّ لما كان هذا حالهم مع هذه التذكرة التي تبين لهم الحق، وتدعوهم إليه، وتبين لهم الشرَّ وتحذرهم منه، وليس ثمة حكم على من يعرض عن هذه التذكرة إلاَّ الحمق والبلادة، وشدة الغباء، ومن هنا جاء تشبيههم بالحمر دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

كما في تشبيه هؤلاء القوم بالحمر. حالة إعراضهم عن القرآن حين يُتلى عليهم . دلالة على شدة نفارهم وإعراضهم عن هذه التذكرة، إذ لا أشد نفاراً، وأسرع عدواً من حمر الوحش حين تشعر بصوت القانص لها، أو حين يهاجمها من يريد افتراسها.[2]

ومما يدل على شدة نفارها، وسرعة عدوها أن شَبَّهتْ العرب الإبل بها في سرعة سيرها وخفتها، فما أكثر ما جاء في شعر العرب تشبيه الإبل بالحمر بسرعة عدوها، وشدة نفارها.[3]

وفي تشبيه هؤلاء القوم بالحمر في عَدْوِها وخِفَّتها دلالة على موقف أولئك المعرضين عن القرآن، وتصوير دقيق لهم وقت سماعهم لتلك الآيات، وتلاوتها عليهم، فما إن يسمع هؤلاء القوم آيات الله تتلى عليهم، وتقرع أسماعهم إلاَّ وتراهم يفرون منها في خِفَّة وطيش، ويهربون من سماعها، فتراهم في نفورهم كالحمر وقد لفَّها الذعر، وشملها حين رأت أسداً مقبلاً عليها يريد افتراسها.[4]

---

(1) انظر: المحرر الوجيز: 399/5.

(2) انظر: البحر المحيط: 372/8.

(3) انظر: نظم الدرر: 77/21، و: التحرير والتنوير: 29/ 329.

(4) انظر: التفسير القرآني للقرآن: 1307/15.

ولم يكن تشبيه هؤلاء القوم بالحمر مقصوراً على هذا الأمر، وموقوفاً به عند هذا الحد، بل جاء تشبيههم بالحمر في أشد حالاتها خوفاً وذعراً، فهي حمر مستنفرة، قد راعها وأذهلها مهاجمة الأسد لها ومطاردتها، ففرت من أمامه تريد النجاة منه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (المدثر: 50 - 51)، وهذا سرٌّ من أسرار القرآن الكريم، وخاصية من خصائص تشبيهاته، وهي تلك القيود التي يجعلها في المشبه به ((فمن عادة القرآن في رسم صورة التشبيه أن يذكر فيها من القيود وأحوال الصياغة ما يجعلها معبرة تعبيراً دقيقاً عن الغرض المسوقة فيه، ولهذه القيود والأحوال شأن في صورة التشبيه لا ينتبه إليها إلاَّ المعنِّي بإبراز نواحي الجمال، وسرِّ البلاغة في الأسلوب))[1]، فهذه الحمر التي شبه الله ـ تعالى ـ هؤلاء القوم بها هي حمر مستنفرة .

وقد وردت قراءتان في هذه اللفظة ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ فقد قُرئت بفتح الفاء وكسرها[2]، فعلى قراءة الفتح مستنفَرة، يكون المعنى: أن هذه الحمر مذعورة مُنفَّرة، أي محمولة على النفار، وعلى قراءة الكسر مستنفِرة، يكون المعنى: نافرة[3]، وفي هذه القراءة إشارة إلى أن هذا النفور طبيعة غالبة عليها، فهذا ديدنها وشأنها دائماً وأبداً دون أن يكون هناك سبب لنفارها[4]، وكلا القراءتين ـ كما يذكر الطبري ـ صحيحتا المعنى، وبأيهما قرأ القارئ فمصيب[5]، لذا فينبغي ونحن ننظر في دلالة هذه اللفظة ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ وبلاغتها أن ننعم النظر في معناها وإيحائها في أدائها المعنى المنوط بها، في ضوء هاتين القراءتين، وأن نأخذ بهما جميعاً، ولا نُفاضل إحداهما على الأخرى.

(1) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 486.
(2) انظر: جامع البيان: 168/29.
(3) انظر: مجاز القرآن: 276/2.
(4) انظر: التفسير القرآني للقرآن: 1307/15.
(5) انظر: جامع البيان: 168/29، يدل على هذا ـ أيضاً ـ قول الفراء: الفتح والكسر في ذلك كثيران في كلام العرب، انظر: معاني القرآن: 3/ 206.

وفي مجيء لفظة ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ بهذه الصيغة دون (نفرت) مبالغة في إثبات هذه الصفة لها، و تعجباً من سرعة عدوها ونفارها، فهي نافرة نفاراً شديداً وقوياً، فهي تعدو بأقصى عدو وأسرعه، يدل على هذا المعنى ويُشير إليه السين والتاء في صياغة هذه اللفظة، ففيها دلالة على المبالغة في إثبات هذا النفور[1]، يدل على هذا المعنى ويؤكده . أيضاً . مجيئها بهذه الصيغة دون لفظة (نافرة)؛ وذلك أن اللفظة التي جاء بها القرآن أبلغ وآكد في إثبات هذا المعنى المراد تحقيقه؛ وذلك ((أنها لشدة نفورها، قد استنفر بعضها بعضاً، وحضَّه على النفور، فإن في الاستقبال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد، كأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه)).[2]

ولم يقف التشبيه عند هذا الحد في بيان مدى إعراض هؤلاء القوم عن هذه التذكرة، وشدة نفورهم منها، بل أضاف إليها لوحة أخرى من لوحات هذا المشبه به، ذاكراً سبب نفور هذه الحمر، وسرعة عدوها، وشدة ركضها في قوله ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (المدثر: 51)، أي كأن أولئك القوم في نفارهم من الحق، وإعراضهم عنه حمر الوحش وقد هربت ممن يريد صيدها والفتك بها.[3]

واختلف أهل التأويل في المراد بالقسورة، فالذي عليه قول جمهور المفسرين واللغويين أن المراد بالقسورة: الأسد[4]، وذلك أن الحمر الوحشية متى ما أبصرت الأسد فإنها تهرب من بين يديه أشد الهرب والنفور.[5]

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 330/29.

(2) التفسير القيم: 503.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم: 472/4.

(4) انظر: البحر المحيط: 372/8، ومما قيل في معنى القسورة: أنهم هم الرماة القناص، وقيل: هم رجال أقوياء، وذلك أن كل رجل شديد عند العرب فهو قسورة، وقيل المراد به: لغط القوم وأصواتهم، وقيل: حبال الصيادين، وقيل: سواد الليل، إذ يطلق على سواد أول الليل قسورة . انظر: معالم التنزيل: 419/4.

(5) انظر: معالم التنزيل: 419/4.

وللأستاذ أحمد بدوي وقفة نفيسة مع هذا التشبيه، ومع هذه الصورة الفنية المتكاملة، يقول: ((ربما بدا أنه يكفي في تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير،ولكنه في دقته لا يكتفي بذلك، فهو يريد أن يصور نفورهم من الدعوة، وإسراعهم في إبعاد أنفسهم عنها، إسراعاً يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب، وتحثها عليه، يزيد في هربها وفرارها أسدٌ هصور يجري خلفها، فهي تتفرق في كل مكان، وتجري غير مهتدية في جريها، أوَ لا ترى في صورة هذه الحمر وهي تجدُّ في هربها لا تلوي على شيء، تبغي الفرار من أسد يجري وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة، فارِّين من أمام الدعوة لا يلوون على شيء، سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية)).(1)

وقد آثر النظم القرآني في هذا السياق لفظة ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ دون لفظة (أسد) أو ما عداها من أسماء الأسد الكثيرة، وذلك لما في هذه اللفظة من الإيحاءات والدلالات ما ليس في غيرها من الألفاظ، ففيها دلالة على القسر والقهر والغلبة، فقد سُمي بذلك؛ لأنه يقهر السباع ويغلبها(2)، فضلاً عما فيها من الإيقاع والجرس القوي الخاص بها، ليزيد من هيبته هيبةً، ويضيف إلى عظمته عظمةً أخرى، لتحل مكانته في القلوب، وتجل منه النفوس.(3)

وفي تشبيه الكفرة المعرضين بالحمر ـ وهي في هذه الحالة من شدة النفور ـ مذمة ظاهرة لهم، وتهجين لحالهم، وتبشيع لهم، وعرضهم بهذه الصورة المزرية التي يأنف منها عقلاء الناس وكرامهم ، وذلك أنك لا ترى مثل نفار حمر الوحش في العدو متى ما رابها رائب، وليس ثمة أسرع من عدوها متى ما أحست بقانص يتربص بها، أو يريد مهاجمتها.(4)

---

(1) من بلاغة القرآن: 200.
(2) انظر: التفسير الكبير: 213/30.
(3) انظر: التفسير القرآني للقرآن: 1308/15.
(4) انظر: الكشاف : 188/4.

كما أن في هذا التشبيه شهادة عليهم بالبله وقلة العقل، وتسجيلاً عليهم بفرط عنادهم، وشدة إعراضهم عن القرآن، وحسبك بهذا مذمة لهم، وتنقصاً من حالهم، وحطاً من شأنهم وقدره.

وإذا كان هذا هو حال هذه الحمر وشدة عدوها وركضها وهي تفر من بين يدي من أراد اصطيادها والفتك بها، فكذلك حال أولئك القوم وهم يفرون من بين يدي رسول الله ﷺ حين يتلو عليهم القرآن، ويسمعون منه هذه التذكرة، وشتان شتان بين ما فرَّ منه أولئك المعرضون، وبين ما تفر منه تلك الحمر، وذلك أن هذه الحمر تفر ممن يريد قتلها والفتك بها، أما هؤلاء فإنهم يفرون ممن يدعوهم إلى الحياة الخالدة، وإلى عزهم وشرفهم وسيادتهم، فما عذرهم من هذا الهرب، أليسوا هم إذن أضل سبيلاً من هذه الحمر؟

ولا يخفى ما تضمنه تشبيه القرآن الكريم بالأسد الهصور الذي فرت منه تلك الحمر من الدلالات والإيحاءات، وذلك لِما لهذا الاسم من العظمة والهيبة التي تملأ القلوب، وتسيطر على المشاعر وتملكها، ثم هو ـ أيضاً ـ مع هيبته وشدة سطوته بعيد عن الدنايا، عفٌّ مترفع عن الجيف لا يأكل الميتة ولو مات جوعاً.(1)

كما في هذا التشبيه إشارة إلى أن الداعي إلى الحق الذي يصدع به حري أن يكون جريئاً كالأسد الهصور، فتكون الشجاعة من أبرز صفاته(2)، فلا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يخشى أحداً أبداً غير الله، ويمضي في دعوته بكل قوة ورسوخ وثبات .

وبعد أن بيَّن ـ سبحانه ـ موقف القوم من هذه التذكرة، وما هم فيه من الإعراض عنها، والتكبر عما جاء فيها، وبعد أن شبههم بالحمر التي تنفر ممن يهاجمها، ويريد الفتك بها، بعد هذا كله ذكر ـ سبحانه ـ السبب الذي جعل هؤلاء القوم يعرضون عن القرآن في قوله ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴾ (المدثر: 52)، يخبر ـ سبحانه ـ

(1) انظر: التفسير القرآني للقرآن: 1308/15.

(2) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها : 2 /96.

أن هؤلاء القوم ما أعرضوا عن القرآن جهلاً منهم به، فهم يعلمون أنه نازل من عند الله، ويقرون بما جاء فيه، ولكنه طغيانهم وتجبرهم هو الذي يحول بينهم وبين الإيمان به، والإقبال عليه، وذلك أنهم يريدون أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء باسمه، يخصه دون غيره(1)، زعماً منهم أنهم لا يؤمنون إلاَّ بنزول هذه الكتب عليهم، وقد كذَبَوا فيما زعموا، وذهبوا إليه، فهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، ولو نزل عليهم كل كتاب، فهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وإلاَّ فقد جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كانوا صادقين لانقادوا لها وآمنوا بها(2)، وهل شيء أصدق وأوضح من القرآن الذي جاءهم به رسول الله ﷺ، ومع هذا كفروا به وأعرضوا عنه إعراضاً شديداً؟!.

وقد أفاد هذا الحرف (بل) الإضراب والانتقال، فقد أضرب . سبحانه . عن جواب الاستفهام في قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (المدثر: 49)، فكأنه يقول: لا جواب لهم عن هذا السؤال، ولا حجة لهم لهذا الإعراض، ولكن يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة(3)، فيكون في هذا الإضراب انتقال لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم، وبيان تعنتهم في طلب الآيات على وجه السخرية والاستهزاء.

(1) انظر: جامع البيان: 170/29.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن: 337/5.

(3) انظر: الفتوحات الإلهية: 70/8.

المبحث الثاني: المجاز(1)

المجاز في اللغة اسم للمكان الذي يُجاز فيه، يُقال: جزتُ الطريق، وجاز الموضع جوازاً، وجاز به، وجاوزه، وأجازه غيره(2)، وحقيقته الانتقال من موضع إلى آخر، فأُخذ هذا المعنى وجُعل لنقل الألفاظ فيما بينها لتحلَّ كل واحدة منهما محل الأخرى لمعانٍ شتى، وأغراض متعددة، يدل على هذا المعنى قول عبدالقاهر الجرجاني: « المجاز مَفْعَل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وُصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولاً ».(3)

ومن هذه المعاني اللغوية جاء تعريف البلاغيين للمجاز، فقد تعددت تعريفاتهم له، لكنها تدور حول هذا المعنى، ولا تخرج عنه ، فقد عرفوا المجاز أنه: استخدام اللفظة في غير ما وُضعت له، لعلاقة، مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي لها.(4)

---

(1) كثر الحديث عن المجاز قديماً وحديثاً حول وجوده في اللغة وفي القرآن الكريم، وانقسم العلماء في ذلك قسمين: بين مثبت له، ونافٍ لوجوده، وليس هذا المقام مقاماً لبسط هذه المسألة، إذ إن وجود المجاز في اللغة العربية وفي القرآن الكريم أكبر من أن يُنفى، أو أن يبقى المرء فيها مترددا متحيراً ؛ وذلك أن إنكار المجاز في اللغة وفي القرآن .كما يقول د. عبدالعظيم المطعني .: " إنما هي مجرد شبهة كُتبت لها الشهرة، ولكن لم يكتب لها النجاح "، للوقوف عند أطراف هذه القضية، وتقصيها تقصياً تاماً ؛ لمعرفة صحة من ذهب إلى وجود المجاز في اللغة والقرآن، يُنظر:

1. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع: عرض وتحليل ونقد، للدكتور: عبدالعظيم مطعني، وهو من خير ماأُلف في هذا الموضوع، وعرضه عرضاً موضوعياً.
2. رسالة ماجستير في البلاغة، مقدمة من الباحث: إبراهيم بن منصور التركي، بعنوان: البلاغة عند الإمام ابن تيمية.
3. دراسة للدكتور أحمد محمد علي بعنوان: رأي في قرينة المجاز، وقد نُشر في مجلة جامعة الأزهر، العدد الثاني عشر.

(2) انظر: لسان العرب: مادة: جوز.

(3) أسرار البلاغة: 395.

(4) انظر: معجم المصطلحات البلاغية: 589، و انظر: علم البيان: 135.

ومن هنا يتبين أن المجاز ضد الحقيقة، وذلك أن الحقيقة هي استخدام الألفاظ فيما وُضعت له في أصل اللغة .

وينبغي أن يُعلم أن الحقيقة في بابها بيان وبلاغة، فلا يقلل من شأن الكلمة أن تكون مستعملة في معناها الحقيقي الذي وُضعت له، إذا كان ذلك مما يقتضيه المقام، بل إن البلاغة حينئذ تكون في استخدام هذه الألفاظ على حقيقتها، أما إذا تطلب المقام للمجاز فإن البلاغة حينها تكون في المجاز(1)، ولا جدل في هذا؛ ذلك أن ((الحقيقة والمجاز وسيلتان من وسائل التعبير، لا تُغني إحداهما عن الأخرى في نقل المعنى،أو رسم الصورة، فها هو القرآن الكريم حافل بأساليب الحقيقة، وفنون المجاز جنباً إلى جنب، ولو كان أحدهما أمتع للأسماع، أو أجمع للفكرة لاقتصر عليه دون الآخر)).(2)

وعلى هذا يُحمل ما نُقل عن كثير من العلماء من الحفاوة بالمجاز والعناية به، إذ لا تخفى مكانة هذا المجاز، وأثره في التعبير، وأداء المعاني في المقامات التي تتطلبه وتستدعيه، ومن هنا فقد شغف به العرب، فكثر استخدامهم له في كلامهم، حتى صار عندهم ((منهلاً موروداً، عذب الارتشاف، وسبيلاً مسلوكاً، ولهذا كثر في كلامهم حتى صار أكثر استعمالاً من الحقائق، وخالط بشاشة قلوبهم حتى أتوا منه بكل معنى رائق، ولفظ فائق، واشتد باعهم في إصابة أغراضه، فأتوا فيه بالخوارق)).(3)

ولا بد لهذا المجاز من علاقة وقرينة، فالقرينة هي التي تبين أن المعنى الحقيقي غير مراد، وأن المعنى المجازي هو المقصود، وقد كثرت هذه القرائن وتعددت سواء كانت لفظية أو عقلية، ولكن يجمعها كلها أمر واحد، وهو ما يدل على تعذر حمل اللفظ على معناه الحقيقي.(4)

---

(1) انظر: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل: 28، د. محمد بركات حمدي.

(2) البيان في ضوء أساليب القرآن: 287، د. عبدالفتاح لاشين.

(3) مقدمة تفسير ابن النقيب: 22.

(4) انظر: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: 185، لمحمد بن علي الجرجاني.

وأما العلاقة فهي الصلة الوثيقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهي التي سوَّغت نقل اللفظة من معناها الأصلي، واستخدامها في المعنى المجازي.[1]

ومن خلال هذه العلاقات يتبين نوع المجاز، فإذا كانت العلاقة بين المعنيين المشابهة كان ذلك المجاز استعارة، وإن كانت تلك العلاقة غير المشابهة كان ذلك مجازاً مرسلاً، كما بيَّن ذلك الخطيب في قوله:

« والمجاز ضربان: مرسل واستعارة، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلاَّ فهو مرسل » .[2]

وهناك نوع آخر من المجاز يتعلق بالتجوز في الإسناد، وهو المجاز العقلي.

وسأقف مع هذا المجاز بأقسامه الثلاثة للنظر في بلاغته وأسراره، وذلك من خلال حديث القرآن عن القرآن.

(1) انظر: شروح التلخيص: 24/4.

(2) الإيضاح: 81/3.

المجاز العقلي

وهو ـ كما عرفه الخطيب ـ: ((إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول، وللفعل ملابسات شتى: يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والسبب))[1]، وقوله (بتأول) أي بوجود قرينة تدل على وقوع المجاز في الإسناد.

وُسمي هذا المجاز عقلياً؛ لاستناده إلى العقل دون الوضع اللغوي، وذلك أن الألفاظ في هذا المجاز لم تخرج فيه عن وضعها اللغوي، وإنما كان المجاز والنقل في الإسناد، وهو أمر عقلي.[2]

ويُعد عبدالقاهر الجرجاني أول من وضع لهذا المجاز مصطلحاً وحدًّا، فقد تحدث عنه، وأشار إليه، وجاء من بعده وأفادوا منه[3]، فقد ذكر في حده ((أن كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه عن الفعل لضرب من التأول فهو مجاز))[4]، ثم مثل لهذا بقولهم: ((نهاره صائم، وليله قائم، وقوله ـ تعالى ـ ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ ﴾ (البقرة: 16)، يقول: فأنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكام أُجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك (نهارك صائم، وليلك قائم، في نفس (صائم، وقائم) ولكن في أن أجريتهما خبرين عن النهار والليل، وكذلك ليس المجاز في الآية في ﴿ رَبِحَت ﴾ ولكن في إسنادها إلى التجارة، أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلاَّ وقد أُريد به

---

(1) المصدر السابق: 56/1.

(2) وقد وردت عدة تسميات للمجاز العقلي، يقول ابن يعقوب المغربي: ((من الإسناد مطلقاً مجاز عقلي؛ لأن حصوله بالتصرف، ويُسمى مجازاً حكمياً؛ لوقوعه في الحكم بالمسند إليه، ويُسمى ـ أيضاً ـ مجازاً في الإثبات؛ لحصوله في إثبات أحد الطرفين للآخر؛ ويُسمى ـ أيضاً ـ إسناداً مجازياً نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر؛ لأن الإسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله إلى غير ذلك)) (مواهب الفتاح: 231/2).

(3) انظر: الطراز: 258/3.

(4) أسرار البلاغة: 385.

معناه الذي وُضع له على وجهه وحقيقته)).[1]

وقد فصل العلماء هذا القول، وذكروا علاقات هذا المجاز، وأمثلته المختلفة الدالة عليه من كتاب الله، وكلام العرب شعراً ونثراً. [2]

وسيتضح أثر هذا المجاز وبلاغته من خلال تحليل بعض آيات حديث القرآن عن القرآن المشتملة على هذا المجاز بعلاقاته المختلفة .

يذكر . سبحانه وتعالى . في حديث القرآن عن القرآن . نعت عباده المؤمنين مبيناً حالهم مع كتاب ربهم، ومشيراً إليه إشارة إكبار وإعظام، في قوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ (الأنفال: 2).

جاء ذكر المؤمنين في هذه الآية بأسلوب الحصر، فقد حصر . سبحانه . المؤمنين بكونهم هم الذين ينتفعون من القرآن غاية الانتفاع، وهم الذين توجل قلوبهم عند تلاوته، وتخشع وتهتز من عظاته وزواجره، فهي من هذه الزواجر والقوارع توجل وتفزع، فهذه القلوب وحدها هي التي تفزع لذكره استعظاماً له . سبحانه . وهيبة من عظمته وجلاله، واستحضاراً لعزة سلطانه، وشدة بطشه، وأليم عقابه لمن خالف أمره وعصاه[3]، فهذه هي حالة هذه القلوب الحية اليقظة مع كلام ربها وجل وخوف.

وفي حصر الإيمان في من كان هذا نعته نفي لمن انتفت عنه هذه الصفة، فكأن الذي لا يوجل قلبه من ذكر الله لا يكون مؤمناً، وهذا بصريح هذه الآية، وذلك بدلالة القصر لتضمنه الإثبات والنفي، وحتى يستقيم هذا الحصر ذكر كثير من المفسرين أن المراد بقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الإيمان الكامل، وذلك أن كثيراً ممن يدعي الإيمان تُتلى عليه آيات ربه

---

(1) دلائل الإعجاز: 294.

(2) انظر: دلائل الإعجاز: 293، و: أسرار البلاغة: 385، و: الإيضاح: 63/1، و: شروح التلخيص: 248/1.

(3) انظر: الكشاف: 142/2.

بكرة وعشياً، وفي كل وقت وحين، ومع ذلك لا يوجل قلبه منها، أو يفزع من وعيدها، وكأنها لم تُلقَ على مسمعه، فحتى يستقيم هذا الحصر ذكروا أن المراد بالإيمان هو الإيمان الكامل.(1)

وقد جاء ﴿ ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ هنا مجملاً عاماً؛ ليناسب ذلك الوجل الذي يقوم في قلوب المؤمنين، فذكر الله يكون باسمه، ويكون بذكر عقابه، وأليم عذابه، كما أنه يكون بذكر عظمته، وشدة سطوته،وغير ذلك كثير وكثير، وهي كلها داعية لاستحضار عظمته، ومن ثم الوجل منه ـ سبحانه ـ أشد الوجل، ومن هنا جاء ثناء الله على هؤلاء المؤمنين بهذه الصفة.(2)

كما أن في بناء هذا الفعل للمجهول ﴿ ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ دلالة على تعلق هذه القلوب بالذكر، بغض النظر عمن يتلو هذا الذكر، ومن يتلفظ به، فهي لم تنظر إلى هذا، ولم تلتفت إليه، بل توجهت هذه القلوب إلى الذكر، ومن ثم كان منها الوجل الذي نعتهم به ـ سبحانه ـ وأشار إليه، مشيداً به.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ صفة أخرى لهؤلاء المؤمنين تبين حالهم مع كتاب ربهم، وتذكر موقفهم منه، وأثره عليهم بعد إقبالهم عليه، وتدبرهم له، في قوله ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ (الأنفال: 2)، وقد وُصلت هذه الجملة بالتي قبلها؛ وذلك لاتفاق هاتين الجملتين في الخبرية، فكلا الجملتين إخبار عن المؤمنين، وبيان لحالهم مع ذكر الله، وآياته، كما أن هاتين الجملتين متفقتان ـ كذلك ـ في الثناء على هؤلاء المؤمنين بهذه الأعمال العظيمة التي تبين موقفهم من كلام ربهم، وحالهم معه، وأثره عليهم.

وقد جاءت هذه الجملة مبينة حال هؤلاء المؤمنين مع القرآن، وأثره عليهم، فيكون في هذه الجمل إطناب بعطف الخاص على العام، فقد ذُكر في الجملة الأولى ذكر الله، وهو عام

---

(1) انظر: الكشاف: 142/2، و: المحرر الوجيز: 501/2، و: البحر المحيط: 454/4، و: فتح القدير: 185/2، وروح المعاني: 165/9، وغيرها.
(2) انظر: التحرير والتنوير: 256/9.

يشمل القرآن وغيره، أما في الجملة الثانية فقد اقْتُصر فيها على بيان حالهم مع القرآن، يدل على هذا قوله ﴿ تُلِيَتۡ ﴾ .

وفي عطف الخاص على العام دلالة على عظم القرآن الكريم، وعلو منزلته ورفعته، كما أن في عطف الخاص على العام دلالة على عظم هذه المنزلة، فقد استُحقتْ أن تُفرد، وأن تُخص بالذكر، فزيادة إيمان العبد كلما تُلي عليه القرآن من أكبر الدرجات والمنازل التي يسعى العبد لتحقيقها، وكم تنافس فيها المتنافسون، وشمر إليها المشمرون المجدون.

إذن فهذه صفة هؤلاء المؤمنين أنهم متى ما تُليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ولما كان الغرض من هذه الجملة إثبات هذه الصفة لهم، والإشادة بها والثناء عليهم بذلك، لما كان هذا هو غرض هذه الجملة جاء نظمها متوافقاً مع هذا الغرض أتم الموافقة، ومبرزاً له وموضحاً، يتجلى هذا الأمر من خلال ما يأتي:

في بدء الجملة بأسلوب الشرط، وذلك لارتباط جواب الشرط بفعله، فقد ارتبط زيادة إيمانهم بتلاوة الآيات عليهم، فكلما تُليت عليهم الآيات ازدادوا بها إيماناً، كما أن في بناء الفعل ﴿ تُلِيَتۡ ﴾ للمجهول دلالة على غرض هذه الجملة، وإظهار له، وذلك أن هؤلاء المؤمنين قد تعلقت قلوبهم، وارتبطت بهذه الآيات، وبما جاء فيها، ولما اشتملت عليه، ولم يلتفتوا إلى مَن يتلو الآيات عليهم، ويُلقيها على مسامعهم، فليس ثمة وسيط بينهم وبينها، وفي هذا مزيد ثناء عليهم بهذا الأمر، وإشادة به.

ولما كان الغرض من الجملة الثناء عليهم جاء النظم القرآني بتقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَيۡهِمۡ ﴾ على نائب الفاعل ﴿ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ دلالة على هذا الغرض، وإشارة إليه، كما أن في هذا التقديم عناية بشأن هؤلاء المؤمنين، واهتماماً بهم.

وفي إضافة الآيات إليه ـ سبحانه ـ في قوله ﴿ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ تعظيم لهذه الآيات، وتفخيم لشأنها، فحسبك بالآيات شرفاً وقدراً أن كانت آيات من تكلم به وأنزله، فإذا كانت هذه هي مكانة هذه الآيات، وهذا قدرها وشرفها فلا عجب إذن أن يزيد إيمان هؤلاء بسبب تلاوتها عليهم، وسماعهم لها.

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن السعدي كلاماً نفيساً في إيضاح كون هذه الآيات سبباً

في زيادة الإيمان، يقول: ((ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يُبين لهم معنى كانوا يجهلونه، ويتذكرون ما كانوا نسوه، أو يُحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان)).[1]

وفي إسناد زيادة الإيمان إلى الآيات التي تُتلى عليهم مجاز عقلي؛ لكونها سبباً في هذه الزيادة، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه دلالة على عظم هذه الآيات، وقوة أثرها على من يتلقاها بالقبول ويصغي إليها إصغاء تدبر وتأمل لما جاء في تضاعيفها، فيأتمر بأمرها، وينتهي عن نواهيها وزواجرها.

كما أن في هذا المجاز دلالة على تلك الصلة الوثيقة بين المؤمنين وبين الآيات التي تُتلى عليهم، فكانت سبباً في زيادة إيمانهم، ورسوخ يقينهم بها، وتصديقهم إياها.

ولنا أن نتصور أثر هذه الآية ومعناها لو جاء الإسناد على حقيقته لذهبت هذه الروعة وتلك العظمة التي نجدها في هذه الآية بسبب الإسناد المجازي، ومن هنا يتضح أثر هذا المجاز، وأثره الكبير الذي يقوم به في أداء معانيه، وتحقيق أغراضه التي جاء من أجلها في حديث القرآن عن القرآن.

ثم ختم . سبحانه وتعالى . صفات عباده المؤمنين مخبراً عنهم بأنهم لا يفوضون أمورهم إلاَّ إليه، ولا يرجون أحداً سواه في قوله ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: 2)، وقد وُصلت هذه الجملة بالتي قبلها؛ وذلك لاتفاق هاتين الجملتين في الخبرية، فكلاهما إخبار عن هؤلاء المؤمنين بهذه الصفات العظيمة، وثناء عليهم بها.[2]

وقد جاء تقديم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ على متعلقه ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ وذلك لإفادة

(1) تيسير الكريم الرحمن: 2/ 188.

(2) والأولى في هذه الجملة ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أن تكون مستأنفة لبيان صفة هؤلاء القوم وما هم عليه من التوكل على الله، خلافاً لما ذهب إليه العكبري في أنها حال من الضمير في قوله ﴿ زَادَتْهُمْ ﴾ (انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: 3/2) وفي هذا مزيد ثناء عليهم ومدح لهم بهذه الصفة، وهذا هو غرض هذه الآية وهدفها التي جاءت لتحقيقه.

الحصر، فهم لا يفوضون أمورهم إلاَّ إلى الله، ولا يرجون غيره، ولا يخافون أحداً سواه، ولا يقصدون إلاَّ إياه في مهمات أمورهم، ومدلهمات خطوبهم، ولا يلوذون إلاَّ بحماه وجنابه في جلب حوائجهم، ودفع الضر عنهم.(1)

ولا عجب أن يقصر هؤلاء المؤمنون توكلهم على الله، فهو ربهم ومالك أمرهم، وسيدهم المتصرف في شؤونهم كلها، كما دلَّ على هذا المعنى وأومأت إليه لفظة (ربهم)، فكأن في اختيار لفظة (الرب) وإضافتها إلى ضميرهم، وتقديمها إشارة إلى هذه المعاني، ودلالة عليها.

كما أن في هذا التقديم إشارة ـ كذلك ـ إلى هذا المقدَّم وعناية به، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ(2)، فيكون في هذا تعريض بالمشركين الذين يتوكلون على أصنامهم، ويفوضون أمورهم إليها، فيكون في ذلك مدح للمؤمنين، وذم وتنقص بالمشركين.(3)

وفي مجيء لفظة ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد توكلهم على الله، وتكرر وقوعه، وفي هذا مزيد ثناء عليهم، ومدحهم بهذه الصفة، فتوكلهم على الله متجدد بتجدد بواعثه ودوافعه، فهم لا ينقطعون عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ وذلك لعلمهم اليقيني بعظمة هذه المنزلة، ومكانتها في الدين، فقد علموا أن مقاليد الأمور كلها بيده ـ سبحانه ـ، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ـ سبحانه ـ المتصرف الملك الذي لا شريك له، ولا معقب لحكمه، فلما كان الأمر كذلك جاء توكلهم عليه متجدداً في كل حين،ومن هنا جاءت لفظه ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً دلالة على هذه المعاني كلها، وإشارة إليها.

● وفي موضع آخر ـ ومع حديث القرآن عن القرآن ـ يذكر ـ سبحانه ـ حال رسوله ﷺ، وحال القوم الذين أُرسل إليهم وقت قراءة القرآن في قوله ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم: 317/2.

(2) ومن هنا يتضح أثر هذا التقديم وبلاغته، فليس الغرض منه مراعاة الفاصلة، كما ذكر القونوي في حاشيته (انظر: 264/3)، كلا فقد جاء هذا التقديم لأغراض بلاغية تتعلق بمعنى هذه الآية، وتحقق الغرض منها، وهذا هو اللائق ببلاغة القرآن وإعجازه في استخدامه لأسلوب التقديم. والله أعلم.

(3) انظر: التحرير والتنوير: 259/9.

جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الإسراء:45).

والمعنى: أنك إذا شرعت في قراءة القرآن جعلنا في قلوب هؤلاء القوم الذي كفروا بك وبما جئتهم به، وناصبوك العداء حجاباً مستوراً.

وفي ذكر هؤلاء القوم بقوله ﴿ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ (الإسراء: 45)، في هذا إظهار في مقام الإضمار، إذ لم يأت بضميرهم مع تقدم الحديث عنهم في الآية التي قبلها، فما سرُّ هذا الإظهار؟ وما سرُّ ذكرهم بطريق الموصول؟ جاء الإظهار في هذا المقام، وذكرهم بطريق الموصول لإبراز ما تضمنته صلة الموصول، وإظهارها، فقد تضمنت هذه الصلة تعليلاً لموقف هؤلاء القوم من عدم إصغائهم للقرآن، وإقبالهم عليه(1)، كما أن في هذا الإظهار تسجيلاً عليهم بعدم إيمانهم، وكفرهم برسول الله ﷺ وبما جاءهم به، كما أن فيه ذماً لهم، وحطاً من شأنهم بنعتهم بهذه الصفة ووصمهم بها.(2)

وقد جاء ذكر عدم إيمان هؤلاء مقيداً بالآخرة في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ (الإسراء: 45)، مع أن هؤلاء القوم لا يؤمنون بالآخرة ولا بغيرها، فما سرُّ هذا التقييد؟ جاء هذا التقييد ليُبين السبب وراء موقف هؤلاء القوم في عداوتهم لرسول الله ﷺ، وتكذيبهم له، والباعث لها، فهؤلاء المشركون بالله ما كذَّبوا رسله، وما اقترفوا من الآثام إلاَّ لأنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يخشون ناره، وأليم عقابه، ومن هنا جاء هذا القيد دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

وقد جاء الإظهار في هذا المقام، ونعت هؤلاء القوم بهذا النعت، والنص على عدم إيمانهم بالآخرة تمهيداً وتوطئة لذكر الحجاب الذي جعله ـ سبحانه ـ على قلوبهم وقت تلاوة رسول الله ﷺ للقرآن، فلما كان هذا حالهم، وذلك موقفهم من البعث والنشور عاقبهم ـ سبحانه ـ بأن جعل على قلوبهم هذا الحجاب، وهو الطبع والختم على القلوب، يحجبهم عن

(1) انظر: التحرير والتنوير: 116/15.
(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 175/5.

فهم القرآن، وتدبر معانيه، والانتفاع بما جاء فيه من المواعظ والعبر.(1)

وفي هذا دلالة على أنه قد خُتمَ على قلوبهم فلا تنفع معهم الآيات والنُذُر، كما جاء هذا المعنى صريحاً في مواضع متعددة من القرآن الكريم، كما في قوله ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ (فصلت: 5)، فأنى لهم ـ والحالة هذه ـ الانتفاع من القرآن، وتفهمه، وتدبر معانيه، والعمل بما جاء فيه؟!؛ وذلك أن الحجاب يمنعهم من رؤية الحق، والأكنة تحول بينهم وبين فهمه، والوقر يحول بينهم وبين سماعه(2)، وإن هذا لمن أعظم العقوبات وأقساها لو كانوا يعقلون، فأي عقوبة أن يُحرم العبد الإقبال على القرآن، وتدبره، وتفهم معانيه.(3)

وفي تعليق الحجاب بقراءة القرآن ـ كما يتضح من أسلوب الشرط ـ دلالة واضحة على أن هذا الحجاب الذي وُضع على قلوبهم له علاقة كبيرة بالقرآن، الذي أعرضوا عن سماعه، والانتفاع به، والإقبال عليه، كما في أسلوب الشرط الذي بدأت به الآية دلالة على حالهم

---

(1) انظر: جامع البيان: 93/15.

(2) انظر: التفسير القيم: 248.

(3) وقيل في معنى هذا الحجاب: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل بين هؤلاء المشركين وبين رسول الله ﷺ حجاباً يحميه منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونه وقت القراءة، وكذلك إذا أراد الصلاة في المسجد، فكم حاولوا أذيته، والاعتداء عليه، يدل على هذا المعنى ماذكره البغوي في تفسيره قال: « حين نزل قوله ـ تعالى ـ ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ (المسد: 1) ، جاءت امرأة أبي لهب، ومعها حجر، والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك بلغني أنه هجاني؟ فقال: واللهِ ما ينطق عن الهوى، ولا ينطق بالشعر، ولا يقوله، فرجعت وهي تقول: قد كنت جئتُ بهذا الحجر لأرضخ رأسه، فقال أبو بكر: ما رأتك يارسول الله ﷺ، قال: لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني » (معالم التنزيل: 117/3) فعلى هذا المعنى، فهو إخبار منه ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أنه يحميه من أذى الكفار إذا قرأ القرآن، فلا يصلون إليه أبداً؛ بسبب الحجاب الذي جعله بينه وبينهم، إلاَّ أن المعنى الأول هو الأولى؛ فهو أدل على غرض الآية، والمبينة لموقف القوم من القرآن، وإعراضهم عنه. والله أعلم.

مع القرآن، وموقفهم منه، وبيان أن هذا الحجاب عقوبة من الله لهم بسبب موقفهم من القرآن وإعراضهم عنه، فهم كلما قُرئ عليهم القرآن أو تُلي على مسامعهم إلاّ وكان هذا الحجاب مضروباً على قلوبهم، فلا يصل إليهم منه شيء، ومن ثم فلا ينتفعون أبداً من مواعظه وزواجره، ولا يُحرِّكون به قلوبهم، وحسبك بهذا شقاء وضلالاً.

يدل على عظم هذا الحجاب وشدة تغطيته وستره مجيء الفعل ﴿ جَعَلْنَا ﴾ مسنداً إليه . سبحانه . فهو الذي تولى هذا الأمر، وقام به، كما يدل على هذا المعنى . أيضاً . إسناد هذا الفعل إلى ضمير التعظيم، وفي ذلك مزيد تعظيم لهذا الأمر، وبيان لشدة هذا الحجاب وغلظته، وفي هذا كله دلالة على عدم خلوص شيء من القرآن إلى هذه القلوب، وفي هذا دلالة على عظم حرمان هؤلاء القوم، وشدة عقاب الله لهم.

وقد وصف . سبحانه . الحجاب الذي جعله على قلوبهم بلفظة ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ ومن المعلوم أن الحجاب يكون ساتراً لا مستوراً، فمجيء هذه اللفظة بهذه الصيغة مجاز عقلي علاقته الفاعلية، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه دلالة على عظم هذا الحجاب، وشدة ستره لما تحته، وبيان ذلك أن في وصف الحجاب أنه مستور مبالغة في حقيقته، وأنه بلغ الغاية في الحجب والستر، فكأنه صار محجوباً بغيره، فهو حجاب فوق حجاب، يستر كل واحد منهما الآخر، فكأنه قال: جعلنا على قلوبهم حجاباً فوقه حجاب.[1]

كما في هذا المجاز دلالة على خفاء الحجاب عن أعين الكفار، فلا يشعرون به ولا يحسون[2]، وهذا من أعظم ما يُصابون به من العذاب، وذلك أن عدم مشاهدتهم لهذا الحجاب، وعدم شعورهم به، يجعلهم يتمادون في غيهم، ويستمرون في باطلهم إلى أن يقبض الله أرواحهم، وهم معرضون عن كتابه، غير مؤمنين به، ولا مقبلين عليه.

كما في هذا المجاز دلالة على قسوة قلوب هؤلاء القوم، وشدة جحودهم وإنكارهم

---

(1) انظر: الكشاف: 451/2، و: التحرير والتنوير: 117/15.

(2) انظر: معالم التنزيل: 117/3.

لهذا الكتاب العظيم، فقد بلغ بهم الجحود والإنكار ((حداً طغى فيه على الحجاب، فصار مستوراً بالجحود والطغيان، بدل أن يكون ساتراً فقد وصلوا في العناد والإعراض إلى حد انقلبت فيه الموازين، وتغيرت فيه المعايير، وتبدلت السنن، فلم تعد تمضي وفق المعهود، بل اختل نظامها)).[1]

ومن هنا يتبين أثر هذا المجاز وبلاغته، وأثره في تحقيق معانيه، والوصول إلى أغراضه في حديث القرآن عن القرآن، في بيان حال المشركين مع القرآن، وموقفهم منه، وما هم عليه من الإعراض وقت قراءة رسول الله ﷺ له.

---

(1) من بلاغة النظم القرآني: 148.

المجاز اللغوي

1- المجاز المرسل

وهو نوع من أنواع المجاز اللغوي، وهو استعمال الكلمة في غير ما وُضعت له، لعلاقة غير المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، فهو ـ كما عرفه الخطيب ـ ((ما كانت العلاقة بين ما استُعمل فيه وما وُضع له ملابسة غير التشبيه)).(1)

وسُمي مرسلاً من الإرسال وهو الإطلاق، وذلك أن علاقة الاستعارة مقيدة في المشابهة، بخلاف المجاز المرسل ، فعلاقاته مطلقة غير مقيدة.(2)

والفرق بينه وبين والمجاز العقلي: أن العقلي ـ كما عرفنا ـ واقع في الإسناد، في إسناد أمر إلى غير ما هو له في الحقيقة، أما المجاز المرسل فإنه واقع في الألفاظ، فهي التي تُنقل فيه من معناها اللغوي الحقيقي إلى معنى آخر مجازي، وهو المراد، فالتغير الذي يجري على الألفاظ في هذا المجاز يتم في نطاق ما دلت عليه اللغة، ومن هنا كان مجازاً لغوياً.(3)

ولهذا المجاز علاقات كثيرة، وقد ذكر العلماء كثيراً من هذه العلاقات، بأمثلتها المتعددة، وشواهدها المختلفة، وبسطوا القول فيها، مبينين أسرارها، وأثرها في الكلام.(4)

وقد جاء هذا المجاز كثيراً في كلام العرب، وفي القرآن الكريم، وهذه وقفة مع بعض الآيات في حديث القرآن عن القرآن لتتبين لنا بلاغة هذا المجاز، وأثره في تحقيق أغراضه ومعانيه.

يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ تعجب كفار قريش وإنكارهم لمبعثه ﷺ لكونه رجلاً منهم،

---

(1) الإيضاح : 82/3.

(2) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 595.

(3) انظر: من بلاغة النظم القرآني: 137.

(4) للوقوف على هذه العلاقات، وللاستزادة منها: انظر: الإيضاح: 85/3، و: شروح التلخيص: 29/4، و: مقدمة تفسير ابن النقيب: 25، و: البرهان: 259/2، و: الإتقان: 755/2، وغيرها.

وسخريتهم به، وبما جاءهم به من القرآن، يقول ـ تعالى ـ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس: 2).

جاء الاستفهام في بداية الآية إنكاراً لحالهم وموقفهم من القرآن، وتوبيخاً لهم على ذلك الموقف، وتعجباً منه، ففي هذا الاستفهام تعجب من تعجبهم من كون الرسول ﷺ رجلاً منهم، فليس العجب أن يكون الرسول ﷺ رجلاً منهم يعرفهم ويعرفونه فكذا كان جميع الرسل المبعوثين إلى أقوامهم فلم يكونوا إلاَّ بشراً مثلهم ومنهم، بل العجب كل العجب أن يتعجب القوم من هذا الأمر، فهذا هو محل العجب، ومكمن الإنكار.(1)

يدل على هذا المعنى، ويشير إليه تقديم خبر كان ﴿ عَجَبًا ﴾ على اسمها، فقد جاء التقديم دلالة على أن هذا الأمر هو محل الإنكار، وعليه مدار الاستفهام، فكان في هذا التقديم اهتمام به، وعناية بشأنه، وبيان لأمره وإيضاحه.(2)

كما في هذا الاستفهام تقريع لهم وتوبيخ، أي لا ينبغي لهم أن يتعجبوا من إرسال رسول إليهم وهو رجل منهم(3)، فعلى هذا جرت حكمة الله، واقتضت سنته، أن يكون الرسول رجلاً من القوم الذين يُرسل فيهم، يعرفون مدخله ومخرجه.

كما أن في تعجبهم من هذا الأمر دلالة على ((سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يُتعجب منه ويُستغرب، وإنما يُتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم، كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ﷺ الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردُّوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره، ولو كره الكافرون)).(4)

---

(1) انظر: الكشاف: 224/2.

(2) انظر: حاشية القونوي: 105/4، و: التحرير والتنوير: 83/11.

(3) انظر: حاشية الصاوي: 117/2.

(4) تيسير الكريم الرحمن: 301/2.

وقد قادهم تعجبهم إلى كفرهم بالرسالة، وتكذيب من جاء بها، وبما جاء به من البينات والهدى.

وفي قوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ مجاز مرسل، علاقته الكلية، فقد أُطلق هذا اللفظ، والمراد به أهل مكة[1]، فهم المقصودون بهذه الآية، فهم الذين تعجبوا من كون الرسول ﷺ رجلاً منهم، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه إشارة إلى أن هذا الإنكار، وذلك التعجب هو حال الأقوام جميعاً مع رسلهم الذين أُرسلوا إليهم، فقد سبق هؤلاء القومَ أقوام تمسكوا بهذه الشبه، وتشبثوا بها، فكأن أولئك الأقوام تواصوا فيما بينهم على هذه الشبه، واتفقوا عليها[2]، وفي هذا إشارة إلى أن أكثر الناس قديماً وحديثاً أثاروا هذه القضية، وتمسكوا بهذه الشبهة، وفي هذا دلالة على ما تكنُّه هذه الصدور من الحسد والحقد على المرسلين، كما أن في هذا دلالة على شدة جهلهم، وقلة تأملهم، وتدبرهم حين ظنوا أن كون الرسول رجلاً منهم سبب لرفض دعوته، ومحاربته.[3]

وقد جاء المجاز بهذه المعاني كلها حينما جاء بهذه اللفظة (الناس) معبراً بها عن الكل، وإن كان يريد منها البعض، ومن هنا تظهر بلاغة هذا المجاز، ودلالته في حديث القرآن عن القرآن، في بيان موقف الناس منه، وسبب كفرهم به.

والمتأمل لنظم الآية يجد أن الله . سبحانه وتعالى . قال ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ ولم يقل (أكان عند الناس) فما دلالة حرف اللام في هذا المقام؟ وما الفرق بينه وبين (عند)؟ أجاب الزمخشري عن هذا السؤال قائلاً: ((فإن قلت: فما معنى اللام في الناس، وما الفرق بينه وبين قولك: أكان عند الناس قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة، يتعجبون منها، ونصبوه علماً يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم، وليس في (عند) هذا المعنى))[4]، ويتضح من هذا أن

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 5/3.
(2) انظر: تفسير المنار: 114/11.
(3) انظر: حاشية القونوي: 106/4.
(4) الكشاف: 224/2.

في مجيء هذا الحرف (اللام) . بدلالته على التملك والاختصاص . تمكن العجب من نفوسهم، فقد خصوا رسول الله ﷺ بهذا العجب والاستهزاء.(1)

وقد جاء ذكر الوحي في هذا المقام بالمصدر المؤول في قوله ﴿ أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ ﴾ دون الصريح لِما في المصدر المؤول من دلالة على تجدد الوحي، وتكرر وقوعه، فأمر الله نافذ ولا راد لأمره وقضائه مهما تعجبوا من هذا الأمر، وسخروا به، كما أن في تجدد الوحي زيادة في همِّهم وغمهم، فليموتوا غيظاً وكمداً منه(2)، وذلك أن هؤلاء القوم الذين أُرسل إليهم هذا الرسول ﷺ ما تعجبوا من إرساله إليهم إلاَّ حقداً له وحسداً، ولعلو قدره، ولِما يأمرهم به، وينهاهم عنه مما ألفوا عليه آباءهم، فإذا كان هذا هو الدافع لهم فليزدادوا هماً وغماً فلن ينقطع الوحي، ولن يتوقف مدد السماء إلى الأرض، نصرةً للمؤمنين، وتأييداً لهم، وإغاظة للمشركين، ومكراً بهم.

ثم بيَّن . سبحانه . أن هذا الذي أرسله إليهم ﴿ رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ ﴾ قد بلغ الغاية في الرجولة، فماذا يعيبون عليه وقد بلغ مبلغ الرجال، وتربع على عرشها، ونال الغاية منها، ووصل إلى منتهاها، وبلغ الرشد والأشد، ثم هو . أيضاً . منهم لا يخفاهم أمره، ولا تجهلهم حقيقته، فلماذا إذن العجب، وذلك الإنكار؟! ومن ثم جاء اختيار لفظة ﴿ رَجُلٍ ﴾ دلالة على هذه المعاني، وإشارة إليها، ليتوافق ذلك مع غرض الآية، ولأن في هذه اللفظة رداً على هؤلاء القوم الذين تعجبوا من إرسال رسول الله ﷺ إليهم رسولاً ونذيراً، ومن هنا يتبين بطلان هذا العجب، ويظهر ضعفه وتهافته.

ثم بيَّن . سبحانه وتعالى . أنه أرسل هذا الرسول من أجل إنذارهم، وبشارة من آمن منهم فقال: ﴿ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ (يونس: 2)، وقد تضمنت هذه الآية عدة مسائل بلاغية، منها:

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 83/11.

(2) انظر: المصدر السابق: 83/11.

أن الأمر بالإنذار جاء سابقاً على البشارة، وفي هذا إشارة إلى واقع أولئك القوم، وما هم عليه من الإنكار، والإعراض عن هذه الدعوة، وسخريتهم بمن جاء بها، فهم بحاجة إلى من ينذرهم أولاً، ويخوفهم بالزواجر والقوارع؛ لعلهم أن يتركوا ما هم عليه من الكفر والجحود،كما أن تقديم الإنذار على البشارة إشارة إلى ((أن التخلية قبل التحلية، وإزالة ما لا ينبغي مقدمة في الرتبة على فعل ما ينبغي)).(1)

والمتأمل لهذا الإنذار يجد أنه جاء لجميع الناس، بخلاف البشارة فقد جاءت مقيدة للمؤمنين، فالناس كل الناس بحاجة إلى الإنذار والتبليغ، والزجر والقرع لعلهم أن يرتدعوا عن فعل كل ما يحطُّ من شأنهم وقدرهم من صغائر الذنوب وكبيرها.

والمتأمل لهذا الإنذار أيضاً يجد أن متعلقه محذوف، فلم يُذكر في هذه الآية المنذر به، وفي ذلك تعميم لتلك النذر لتشمل كل ما يمكن إنذارهم به، وزجرهم عنه، كما أن في عدم ذكر المنذر به وإبهامه تهويلاً له وتعظيماً، فلا يخفى ما في هذا الأسلوب من الوعيد والتهديد الأكيد لهم(2) الذي عن قريب سيحلُّ بهم إن تمادوا في غيهم وكفرهم، واستمروا في تعجبهم وسخريتهم من رسول الله ﷺ.

وهذا التهويل لهذا المنذر به وتعظيمه مما يتناسب مع عظم جرمهم، وفظاعة عملهم وشناعته، هذا مايتعلق بهذا الإنذار، أما البشارة فقد جاءت على خلاف هذا، فقد جاءت خاصة بالمؤمنين في قوله ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (يونس: 2)، فهم وحدهم الذين يستحقون البشارة، بسبب إيمانهم بالله وتصديقهم رسله وكتبه، كما يدل على هذا المعنى تعريفهم بصلة الموصول، فإن فيه إشارة ـ بما تضمنته صلة الموصول ـ إلى سبب البشارة، واختصاصهم بها، وهو الإيمان، وحسبك به، فالمؤمنون هم الذين يُبشرون بهذه المبشِّرات، فيكون في هذا ثبات لهم، وصمود وشموخ أمام الفتن والشدائد والمحن.

---

(1) حاشية زادة: 3/3.
(2) انظر: حاشية زادة: 3/3، و: حاشية القونوي: 106/4.

والمتأمل لهذه البشرى يجد أن متعلقها جاء مذكوراً في قوله ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (يونس: 2)، فما سبب ذكر هذا المتعلق، وما غايته؟ ذُكر المبشَّر به هنا؛ لأن في علم المؤمنين بها مما يزيدهم شوقاً إليها، وتعلقاً بها، وتطلعاً إليها وتلهفاً، فتقوى لديهم الرغبة في حصول هذه المنزلة، فيكون هذا داعياً لهم إلى مضاعفة الجهد والإكثار من الطاعات التي توصلهم إلى هذه المنزلة، وتلك المكانة.[1]

كما أن هؤلاء المؤمنين إذا عرفوا هذه البشرى التي بُشروا بها وعظمتها وجلالة قدرها إذا عرفوا ذلك هانت عليهم الدنيا، ورأوا حقارتها وهوانها، كما يهون عليهم ـ أيضاً ـ ما يلاقون من الشدائد والمصاعب؛ لعلمهم أن بعد هذا كله ما بشرهم ربهم به، ووعدهم إياه، فيكون في ذلك زاد لهم على الصبر، وتحمل المشقة والعنت في سبيل ذلك، ومن هنا جاء ذكر المبشر به في هذا المقام، فانظر إلى بلاغة القرآن العظيم، وتأمل إعجازه، فقد حذف المنذر به، فكان في ذلك الحذف أسرار بلاغية، ونكت بيانية، وذكر المبشَّر به فكان في هذا الذكر أسرار عظيمة، وغايات جليلة، فسبحان من هذا كلامه، ورزقنا تدبره، والعمل به.

إذن فبشرى المؤمنين ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (يونس: 2)، فما هذه البشرى؟ وما تلك المنزلة؟ القدم الصدق: هي المنزلة الرفيعة، والدرجة العالية في الجنة[2]، كما أنها بمعنى الفضل والسبق، وذلك أن كل سابق في خير فهو عند العرب قدم، يُقال لفلان قدم في الإسلام إذا كان سابقاً فيه، وله فيه فضل[3]، فهذا وعد منه ـ سبحانه ـ لهؤلاء المؤمنين أن لهم جزاء موفوراً، وثواباً مدَّخرا عنده بما عملوا وأسلفوا من الأعمال الصالحة التي نالوا بها مرضاته وجناته، بعد رحمته ـ سبحانه ـ بهم، وتفضله عليهم.

(1) انظر: حاشية زادة: 3/3.
(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 6/3.
(3) انظر: مجاز القرآن: 273/1، وقد ذكر البغوي في تفسيره أقوالاً كثيرة في معنى ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ ، وبيان المراد بها انظر: معالم التنزيل: 343/2.

ومن هنا يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو لماذا سُميت تلك المنزلة الرفيعة، والدرجة العالية بالقدم؟ أجاب الزمخشري عن ذلك قائلاً: ﴿ فإن قلتَ لِمَ سُميتْ السابقة قدماً؟ قلتُ: لما كان السعي و السبق بالقدم سُميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً ﴾(1)، ومن هنا يتبين أن في هذه اللفظة مجازاً مرسلاً بعلاقة السببية، فقد جاء التعبير عن السبق والمنزلة الرفيعة بالقدم إذ بها يحصل هذا السبق، والوصول إلى المنازل الرفيعة، فكما تُسمى النعمة يداً؛ لأنها تُعطى باليد، فكذلك القدم سُميت بها المنازل؛ لأنها سبب في حصول هذا الأمر وبلوغه.(2)

وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه دلالة على أن هؤلاء القوم ما نالوا هذه المنازل الرفيعة، والدرجات العالية إلاَّ بالأعمال الصالحة، وبما بذلوا وضحوا في سبيل الوصول إليها وتحقيقها بكل غالٍ ونفيس من نفس ومال وولد، فقد عمل هؤلاء الأسباب، ولم يتواكلوا أو يتركوا العمل ظناً منهم أن تلك المنازل والدرجات تُنال بالتمني دون السعي إليها، والعمل والجد، ثم هم مع هذه الأعمال يرجون فضله ـ سبحانه ـ ورحمته، وبرَّه بهم وإحسانه.

وقد أُضيفت القدم إلى الصدق، مع أنها نعته، فالأصل: قدمٌ صدق، وهذا كقولهم: مسجد الجامع، وحب الحصيد(3)، وتكمن بلاغة هذه الإضافة أن فيها دلالة على عظم هذه المنازل، وزيادة في فضلها، والثناء عليها ومدحها، وذلك أن كل شيء أُضيف إلى الصدق فهو ممدوح وحسن.(4)

كما أن في هذه الإضافة دلالة على أن هؤلاء المؤمنين ما نالوا هذه المنازل الرفيعة والدرجات العالية إلاَّ بسبب صدقهم في أفعالهم وأقوالهم ظاهراً وباطناً(5)، وذلك أن الصدق

---

(1) الكشاف: 225/2.

(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 117/4.

(3) انظر: معالم التنزيل: 343/2.

(4) انظر: الفتوحات الإلهية: 333/3.

(5) انظر: محاسن التأويل: 3322/9.

.كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة.(1)

ومما يُبين عظم هذا الأجر، واختصاص هؤلاء المؤمنين به دون سواهم تقديم خبر إن ﴿ لَهُمْ ﴾ على اسمها ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ فقد جاء التقديم مشيراً إلى هذا المعنى، فهذه المنازل الرفيعة، والدرجات العالية وهذا النعيم المقيم لهؤلاء المؤمنين وحدهم، لا يشاركهم فيه أحد سواهم، كما أن في هذا التقديم عناية بهم، ومزيد إكرام لهم، وحفاوة بهم.

ومما زاد هذه المنزلة الرفيعة شرفاً وقدراً أنها عند مالك أمرهم وسيدهم، وخالقهم، ومدبر شؤونهم كلها، فقد أوحت لفظة (الرب) . وقد أُضيفت إليهم، في قوله (ربهم) . بمزيد من الرعاية والاحتفاء بهم، والعناية بشأنهم، وبمزيد إكرامهم وتكريمهم، فما ظنك بهذه المنزلة الرفيعة عند ذلك الرب العظيم الجليل، فلا تسأل عن هذه المنزلة، وجلالة قدرها.

ثم ختم . سبحانه . هذه الآية ببيان موقف هؤلاء المشركين من رسول الله ﷺ الذي أُرسل إليهم، ومن الكتاب الذي أُنزل عليهم في قوله ﴿ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس: 2)، وقد فُصلت هذه الجملة عن التي قبلها؛ وذلك أن بين الجملتين شبه كمال الاتصال فقد جاءت الجملة جواباً لسؤال ناشئ من مضمون الجملة التي قبلها، فكأن سائلاً يقول: فماذا صنع القوم بعد تعجبهم من ذلك الإرسال؟ فجاءت هذه الجملة جواباً عن ذلك السؤال(2)، مبينة موقفهم من الرسول والقرآن، مشيرة . كذلك . إلى ماتكنّه صدورهم من البغض والحقد على صاحب الدعوة، وعلى الكتاب الذي أُنزل عليه.

وفي قوله ﴿ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ إظهار في مقام الإضمار، وذلك أن هؤلاء الذين كفروا هم الذين تقدم ذكرهم، وأُشير إلى عجبهم وتعجبهم من إرسال الرسول ﷺ، فكان مقتضى

(1) كما ورد في قوله ﷺ: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً ...)، أخرجه البخاري: 95/7، كتاب الأدب، من حديث ابن مسعود .

(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 117/4.

الظاهر أن يُؤتى بضميرهم؛ لتقدم الإشارة إليهم، ولكن جاء الإظهار؛ لأن فيه تعليلاً وبياناً للسبب الذي دعا هؤلاء القوم إلى التعجب من الرسول ﷺ، وإنكار الكتاب الذي جاءهم به، فلم يكن سبب تعجب هؤلاء القوم من الرسول ﷺ إلاَّ كفرهم بالله العظيم، فهذا سبب موقفهم من الرسالة، ومن القرآن،وليس ثمة سبب آخر سواه، وحسبك بالكفر ضلالاً بصاحبه،وطامساً لبصيرته.

كما جاء الإظهار في هذا المقام توطئة لما سيأتي بعده من قولهم في الرسول والقرآن بأنه ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، فهذا الحكم الجائر لا يخرج إلاَّ من قلوب كافرة جاحدة، وإلاَّ فهل يجسر أحد على الإقدام على مثل هذا القول الشنيع، والكفر الصراح إلاَّ من كان كافراً بالله العظيم.

فإذا كان هذا حالهم فلا عجب أن يقولوا هذا القول العظيم، وتلك الفرية العظيمة ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ فلا عجب إذن أن يأتي الخبر منهم مؤكداً بهذه المؤكدات إشارة إلى أن قولهم هذا حقيقة ثابتة، وأمر مقرر متفق عليه، كما أن فيه دلالة على أنهم قالوا هذا القول وأصدروا عليه هذا الحكم عن عقيدة راسخة ثابتة(1)، فهذا هو حكمهم على القرآن، وهذه هي نظرتهم إليه أنه سحر مبين.

ناهيك عما في الإشارة إليه بـ﴿ هَـٰذَا ﴾ من احتقار له وازدراء، فقد ضمَّنوا هذه الإشارة كل ما تكنُّه صدورهم من الازدراء والاحتقار نحو القرآن، فقد بلغ بهم حقدهم عليه وسخريتهم به أن يشيروا إليه إشارة دون التلفظ به، فهذا موقفهم من القرآن، وهذا ما تنعقد عليه تلك القلوب، ولكن أي قلوب تلك التي انعقدت على هذا الأمر، إنها قلوب قوم كافرين، فحسبك أن تعلم هذا فيتبين لك خطل هذا الرأي وفساده، والباعث الحقيقي وراء هذا القول، وهو الكفر.

---

(1) انظر: حاشية القونوي: 107/4.

وقد قرئ لساحر، وقرئ ـ أيضاً ـ لسحر[1]، ولكل واحدة من هاتين القراءتين معناها الخاص بها، ودلالتها في هذا المقام، فقولهم ساحر يعنون به رسول الله ﷺ، وعلى قراءة سحر فيعنون بذلك القرآن.

ولم يقف حقدهم وحسدهم عند هذه الفرية، حتى وصفوا القرآن بقولهم ﴿ مُّبِينٌ ﴾ فهو ـ كما زعموا ـ واضح أمره، لا يخفى على كل ذي لب وبصيرة، لا ينخدع به أحد، أو ينطلي عليه ما جاء فيه، فضلاً على أن يصدق آياته، أو يجرى خلفها، أو ينساق معها.

وفي إطلاق هذا الوصف تلفيق منهم وبهتان، فليس الأمر كما زعموا وافتروا، بل هو الحق المبين، والقرآن العظيم[2]، فلا يخفى بطلان قولهم، وفساد رأيهم، ولظهور بطلانه، وشدة فساده، لم يحتج هذا القول إلى رد، أو جواب يبين بطلانه وفساده، فأبلغ جواب في هذا المقام وأصوبه هو ترك رد مقالتهم هذه، وعدم الإجابة عليها؛ تهميشاً لهم، وعدم اعتراف بهم، وبقولهم هذا، فهم أول من يُكَذِّب هذا القول ويفنِّده، ولكنه الكفر والحقد الذي ملأ قلوبهم، وسيطر عليها، وذلك أن هذا القول ظاهر الفساد، بيِّن العوار؛ لأنهم جميعاً يعرفون حالته ﷺ ومدخله ومخرجه، فقد نشأ بينهم، وما غاب عنهم، ولا خالط أحداً سواهم، فأنى له ـ والحالة هذه ـ أن يتعلم السحر، أو أن يكون ما جاء به سحراً؟!، هذا إن أرادوا بكون الرسول ﷺ ساحراً، أما إن أرادوا بذلك كون القرآن سحراً ففي هذا مدح له من حيث لا يشعرون،كما أن فيه اعترافاً منهم بعجزهم وقصورهم عن إدراك شأو القرآن، ومعارضته، فضلاً عن الإتيان بمثله، أو بما يدانيه، فقد أدركوا أن القرآن فوق طاقة البشر، وأنهم لا قِبل لهم به.

كما أن في إطلاق هذا الوصف دلالة على « تأثير هذا القرآن في القلوب، وجذبه للنفوس إلى الإيمان، وحملها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله، حتى إنه يُفرِّق بين المرء

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 6/3.

(2) انظر: التحرير والتنوير: 86/11.

وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجته وبنيه، وفصيلته التي تؤويه،وتمنعه وتحميه))[1]، فلما رأوا هذا القرآن يفرق بين المؤمن والكافر ظنوا أنه من قبيل السحر، فأطلقوا هذا الوصف على القرآن عناداً منهم وتكبراً عن الحق.

● وفي موضع آخر . ومع حديث القرآن عن القرآن . يذكر . سبحانه وتعالى . منَّته وفضله على رسوله ﷺ، وعلى الناس أجمعين بأن يسَّر لهم القرآن وسهَّله حينما أنزله باللسان العربي المبين، يقول . تعالى .: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ (مريم: 97).

الضمير في ﴿ يَسَّرۡنَٰهُ ﴾ عائد إلى القرآن، لدلالة المعنى عليه، وإن لم يتقدم ذكره في الكلام فيكون هذا من الإضمار في مقام الإظهار، وفي هذا دلالة على علوق القرآن بالنفوس، وقربه من القلوب، بكثرة تلاوته وتدبره وتأمله، ومن هنا جاء ذكره دون إشارة إليه، فكأن الأذهان والأفكار خلت إلاَّ منه، فلا يتبادر إليها إلاَّ القرآن العظيم، ومن هنا جاء إضماره في هذا المقام إشارة إلى هذه المعاني.

في هذه الآية يخبر . سبحانه . رسوله محمداً ﷺ أنه يسَّر القرآن وسهَّله، وقرَّبه إلى الأفهام حينما أنزله بلسان عربي مبين، فصيح؛ ليسهل تدبره وتفهمه، ومن ثم الإقبال عليه، والعمل بما جاء فيه.

وإنها لمن أكبر النعم والمنن أن يُنزِل القرآن بهذا اللسان العربي المبين، يدل على عظم هذا التيسير،وذلك التسهيل إسناد الفعل (يسرنا) إلى ضمير التعظيم، وفي هذا تعظيم لهذا التيسير، وتفخيم له، وذلك لـِما ينطوي خلف هذا التيسير من الحِكم والأسرار، التي أُشير إلى بعضها في هذه الآية .

ومعنى (اللسان) في هذه الآية: اللغة، فمعنى قوله ﴿ يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أي سهلنا القرآن، وقربناه للأفهام حينا أنزلناه بهذا اللسان العربي المبين، أفضل اللغات وأشرفها.

---

(1) تفسير المنار: 115/11.

وفي لفظة (اللسان) مجاز مرسل، فقد أُطلق هذا اللفظ وأُريد به اللغة، وعلاقة هذا المجاز الآلية، فلما كان اللسان آلة هذه اللغة صحَّ هذا الإطلاق، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه إشارة إلى وسيلة من أهم وسائل الدعوة إلى الله، وهو اللسان، فبه يبلِّغ الداعية دعوته إلى الآخرين، وبه يجادلهم ويحاورهم، كما أن فيه أمراً من طرف خفي إلى كل داعية أن يتعهد منطقه وبيانه، ليقوم بالدعوة على خير وجه وأكلمه، كما أن في هذا المجاز إشارة إلى أثر البيان، وتلك البلاغة في الدعوة إلى الله، فهذا البيان ركيزة رئيسة في الداعية، ومن أهم الصفات التي ينبغي أن يكون عليها، وأن يسعى إلى تحقيقها وتكميلها، ويتحتم هذا الأمر إذا كان الداعية في قوم يفخرون بالبيان ويشتهرون به،كما هو حال كفار قريش الذين نزل عليهم القرآن بهذا اللسان العربي.

إذن فقد نزل القرآن بلسانه ﷺ وبلغته، وكذا اقتضت حكمته . سبحانه وتعالى . في إرسال كل رسول أن يرسله بلسان قومه كما قال . تعالى .: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ (إبراهيم: 4)؛ وذلك ليفهموا عنه مراد الله، وليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، وفي هذا إعذار لهم، حتى لا تقوم لهم حجة، ولا تبقى لهم دعوى، ولكي لا يقولوا: قد خُوطبنا بلسان غير لساننا، لا نفهمه و لا نعقله، ومن هنا اقتضت حكمته . سبحانه . أن يرسل كل رسول بلسان قومه لهذه الحِكم، وكذلك بُعث رسول الله ﷺ، ونزل عليه القرآن بلسان عربي مبين.

ثم بيَّن . سبحانه . الغاية من تيسير القرآن ونزوله بهذا اللسان في قوله ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ (مريم: 97)، فهذه إذن غاية تيسير القرآن، وتوضيح ألفاظه ومعانيه، كما دلَّ على هذه الغاية وتلك الحكمة حرف الجر اللام . بدلالته على التعليل ..

وقد اشتملت هذه الجملة على عدة أسرار بلاغية، ونكت بيانية، ومن ذلك: تقديم ذكر البشارة على ذكر الإنذار، فما سرُّ هذا التقديم؟ السرُّ في هذا . والله أعلم . أن في تقديم البشارة هنا دلالة على شرفها وفضلها، كما أنها الأصل في نزول القرآن وتيسيره، فما نزل القرآن إلاَّ لهداية الناس وإرشادهم، وإصلاح شأنهم وحالهم، فالأصل أن يؤمنوا بالقرآن،

ويقبلوا عليه، فإذا آمنوا به وأقبلوا عليه كانت لهم البشارة، وهذا ترغيب منه ـ سبحانه ـ لعباده المؤمنين، ومن هنا جاء تقديم البشارة جرياً على الأصل، فهذا هو المفترض، والمؤمل من هؤلاء الأقوام الذين نزل عليهم القرآن بلغتهم أن يدخلوا في هذا الدين أفواجاً، وأن يقبلوا على القرآن، ويذعنوا له إيماناً وتسليماً، ومن هنا جاء تقديم البشارة على الإنذار دلالة على هذه المعاني، وتوكيداً عليها، إلاَّ أن هناك نفوساً كُتب الشقاء عليها، تصرُّ على كفرها وضلالها فيأتي الإنذار لها بعد ذلك زاجراً لها ورادعاً، جزاء كفرها وإعراضها عن كتاب ربها.

كما جاء في نظم الآية تقديم الجار والمجرور (به) في كلا الموضعين، على المفعول (المتقين، قوماً لدًّا) وقد جاء هذا التقديم إشارة إلى عظم القرآن الكريم، وعلو قدره، وعظم منزلته، فلما كان القرآن مدار الحديث في هذه الآية، فهو الذي يُسرت ألفاظه ومعانيه، وهو الذي نزل لهذه الغايات العظيمة، والأهداف الجليلة، فلما كان الأمر كذلك جاء تقديم ذكره إشارة إلى هذه المعاني، ودلالة عليها.

وقد حُذف في هذه الآية المبشَّر به، وكذلك المنذر به، فما أسرار هذا الحذف وما حكمه؟ فأما حذف المبشَّر به ففي هذا دلالة على ظهوره ووضوحه، فقد جاء في القرآن كثيراً بشارتهم بجنة عرضها السموات والأرض، وأنها أُعدت للمتقين، وهم المتقون بإيمانهم بربهم، وبإقبالهم على كتابه تلاوة وتدبراً.

كما في حذفه تعميم له ليشمل كل بشرى بُشروا بها في الدنيا والآخرة، وكل خير عاجل وآجل في دينهم ودنياهم، فلهم في الدنيا البشارة بالحياة السعيدة الخالصة من الآفات والشرور، ولهم في الآخرة البشارة بالنعيم الدائم المقيم في الجنان، يدل على عموم هذه البشارة وشمولها مجيء الفعل (ليبشر) فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد هذه البشارة، وتكرر وقوعها لهم مرة بعد أخرى، وفي تجدد البشارة وتكرارها دلالة على تنوع هذه البشارات وتعددها.

كما أن المنذر به قد حُذف ـ أيضاً ـ في هذه الآية، وحذفه ـ أيضاً ـ للعلم به ولظهوره، فقد عُلم من خلال ما جاء كثيراً في القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد توعد هؤلاء

الكافرين بربهم، المعرضين عن كتابه المكذبين به بنار تلظى، يُخلَّدون فيها خلوداً سرمدياً.

كما في حذفه تعميم له وتهويل، ليشمل كل وعيد وتهديد تُوعدوا به في الدنيا والآخرة، فقد تُوعدوا في الدنيا بالقتل والسبي وحياة الخضوع والإذلال، وتُوعدوا في الآخرة بأصناف العذاب في النار . والعياذ بالله . ،كما أن عدم ذكره والتصريح به تهويل له لتذهب النفس فيه كل مذهب.

وفي مجيء الفعل (تنذر) مضارعاً دلالة على هذا المعنى وإشارة إليه، فهو إنذار متكرر ومتجدد، يقرع أسماعهم مرة بعد أخرى، فهو إنذار متتابع لا ينقطع عنهم أبداً، ليقض مضجعهم، وليتبينوا حالهم وواقعهم، والمآل الذي سيؤولون إليه إن استمروا وأصروا على كفرهم وعنادهم.

وقد جاء الطباق بين لفظتي: (تبشر، وتنذر) مبيناً غاية تيسير القرآن أتم بيان، فإن في ذكر الشيء وضده بياناً له، وتجلية وإيضاحاً، وبياناً لحال الناس مع القرآن، وموقفهم منه، فقد بيَّن هذا الطباق أن الناس انقسموا حول القرآن قسمين: متقين وهم الذين يُبشرون به، وإلى قوم لدّ أهل خصام وعناد، وهم الذين يُنذرون به ويُتوعدون.

ولا يخفى أن في لفظة (المتقين) مجازاً مرسلاً، فقد ذكر أن الذين يُبشرون بالقرآن متقون، وذلك باعتبار ما سيكون، فهم حينما آمنوا بالقرآن، وأقبلوا عليه فقد انتفعوا به غاية الانتفاع، وزادوا به إيماناً، فصاروا به متقين، ومن هنا جاء إطلاق هذا الوصف عليهم.

وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه ذكراً للمآل الذي سيؤولون إليه، وللصفة التي سوف يصيرون إليها، كما أن في ذكر هذا الوصف حثاً لهم إلى الإقبال على هذا الكتاب والاستمساك به؛ لأن في هذا طريقاً لهم حتى يكونوا متقين.

كما أن في هذا تشريفاً لهم، وتعظيماً بإطلاق هذا الوصف عليهم، وجعلهم من أهل هذه المنزلة وأصحابها، هذه المنزلة التي تنافس لتحقيقها المتنافسون، وشمر إليها المشمرون.

وقد تجلى في هذا المجاز بيان فضل القرآن، ومكانته، وعلو قدره، فحسبه شرفاً وقدراً أن من أقبل عليه، وانتفع به صار من المتقين، ومن ثم يكون في إطلاق هذا الوصف عليهم

حث لهم ودافع إلى الإقبال على هذا الكتاب، والاستمساك به.

هذه بعض أسرار هذا المجاز التي جاءت بها لفظة (المتقين)، كما أن فيها إيجازاً، فقد قامت هذه اللفظة (المتقين) مقام عدة ألفاظ وجمل، فقد أغنت أن يُقال: ليبشر بالقرآن من سيؤول إلى التقوى، ويصير من أهلها، بسبب إقباله عليه، وانتفاعه به، فتأمل بلاغة القرآن العظيم، وإعجازه.

وقد جاء وصف هؤلاء القوم بأنهم قوم لدٌّ في هذا السياق سياقِ الحديث عن القرآن، وبيان تيسيره وتسهيله، وفي هذا الوصف بيان لشدة جدالهم وعنادهم وخصامهم، وبيان مدى إعراضهم عن الحق، وعدم قبوله والإذعان له.(1)

وفي هذا دلالة على فرط جهالتهم، وتمكن العناد بهم، وإصرارهم عليه، وقد خُصوا بالإنذار؛ لأن من ترك العناد والخصام يسهل انقياده، وسماعه للحق، وقبوله إياه(2)، أما هؤلاء فيصعب انقيادهم، وسماعهم للحق، فضلاً عن إيمانهم به، وإقبالهم عليه، ولكن حسب النبي ﷺ في إنذاره لهم أن تقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.(3)

يدل على شدة جدالهم وخصامهم إعراضُهم عن القرآن العظيم، وكفرهم به، مع أنه نازل بلسانهم، وقد يُسر لهم، وسُهلت ألفاظه ومعانيه، بل ما نزل القرآن بهذا اللسان العربي المبين، وما يُسر إلاَّ ليقبلوا عليه، ويؤمنوا به كما دلَّ على هذا المعنى وأشار إليه صيغة القصر التي بدأت بها هذه الآية في قوله ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (مريم: 97)، كما جاء هذا الأمر صريحاً في موضع آخر من حديث القرآن عن القرآن، في قوله ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ

---

(1) للوقوف على معاني﴿ قَوۡمًا لُّدًّا ﴾ (مريم: 97)، والاستزادة منها انظر: جامع البيان: 133/16، و: الجامع لأحكام القرآن: 148/11، وغيرهما.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن: 148/11.

(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن: 222/3.

فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر: 17)، فما يُسر هذا القرآن إلاَّ للاتعاظ به والذكرى، ومع هذا كفر به هؤلاء القوم، وأعرضوا عنه، وذلك أنهم ـ كما نعتهم ربهم الخبير ببواطن هذه النفوس وخفاياها ـ قوم لدٌّ، وإلاَّ فما الذي يمنعهم من الإيمان بهذا الكتاب، والإقبال عليه، والانتفاع به ؟!، وصدق الله ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام: 36).

● وفي موضع آخر ـ ومع حديث القرآن عن القرآن ـ يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ إنزاله للقرآن العظيم، مبيناً ما انطوى عليه من عظائم الأمور وجليلها، والغاية من هذا الإنزال قائلاً: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنعام: 92).

جاء ذكر الكتاب هنا بالإشارة إليه في قوله (هذا) وذلك دلالة على حضوره، وأنه كالمشاهد الذي تُبصره العيون، وتقف على حقيقته(1)، وفي هذا مزيد تمييز له، يدل على هذا المعنى ويؤكده كون الإشارة إليه بالأداة القريبة، دلالة على قربه من المؤمنين، وقرب المؤمنين منه.

ولما كان الغرض من الآية بيان منزلة القرآن، وعظمة قدره، وجلالة شأنه، لما كان هذا هو الغرض منها جاء بناء الآية كلها ونظمها مشيراً إلى هذه العظمة، ودالاً عليها، يتضح هذا الأمر جلياً في الإشارة إلى الكتاب بقوله (هذا) فهي إشارة تعظيم له، وتفخيم لشأنه، على حد قوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ (البقرة: 2)، وقد زاد هذا الكتاب تعظيماً وتفخيماً مجيء لفظة ﴿ كِتَـٰبٌ ﴾ نكرة، ففي تنكيرها تعظيم له، وبيان لعلو قدره، وجلالة شأنه.(2)

وقد ناسب عظمة الكتاب وجلالة قدره أن يُسند فعل نزوله إليه ـ سبحانه ـ بضمير التعظيم في قوله ﴿ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ فقد كان ظاهر الآية وسياقها أن يُقال: وهذا كتاب أنزله الله، ولكنه ـ سبحانه ـ جاء بهذا الفعل مسنداً إلى ضمير العظمة إشارة إلى عظمة هذا الكتاب

(1) انظر: التحرير والتنوير: 369/7.
(2) انظر: روح المعاني: 221/7.

ومكانته، فهذه الصيغة أدل على غرض الآية.[1]

ثم ذكر ـ سبحانه ـ نعت الكتاب الذي أنزله، وعظَّم أمره وشأنه بأنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ وكأن ما سبق هذا الوصف تمهيد له، ودلالة عليه، إذ جدير بكتاب نازل من عنده ـ سبحانه ـ وقد عُظم شأنه ـ أن يكون نازلاً بهذه الصفة، مشتملاً عليها، فهو كتاب مبارك؛ وذلك أنه كثير المنافع، جم المحاسن؛ وذلك لكثرة خيره، وبركته الدائمة، ومنفعته المتواصلة[2]، فقد باركه الله، وبارك فيه بما أودع فيه من الفضائل والمحاسن التي عجز البشر أن يأتوا عليها، أو أن يأتوا بمثلها[3]، فهو مبارك البركة كلها؛ وذلك أنه دالٌّ على الخير العظيم، والأجر الجزيل، ومهما قيل في بركة هذا الكتاب فلن تُوفى حقها، ولن تُعطى قدرها ولو نزراً قليلاً منها مما يستحق؛ لأنه مبارك في كل شيء «مبارك بكل معاني البركة، إنه مبارك في أصله، باركه الله وهو ينزله من عنده، ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل قلب محمد ﷺ الطاهر الكريم الكبير، ومبارك في حجمه ومحتواه، فإن هو إلاَّ صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام... وإنه لمبارك في أثره، وهو يخاطب الفطر البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل، فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل؛ ذلك أن به من الله سلطاناً، وليس في قول القائلين من سلطان، ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب، وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ففيها فصل الخطاب »[4]، فهذي هي بركة هذا الكتاب، وهذا شيء من إيحاء لفظة ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ، يدرك هذه البركة وتناله أثرها وفضلها وخيرها من تقرب إلى القرآن العظيم، ولازمه، وتدبره وتفهمه، وعمل بما جاء فيه، فإنه مدرك شيئاً من هذه البركة ولا بد.

(1) انظر: نظم الدرر: 187/17.
(2) انظر: الكشاف: 35/2، و انظر: التفسير الكبير: 80/13.
(3) انظر: تفسير المنار: 620/7.
(4) في ظلال القرآن: 1147/2.

وقد جاء ذكر إنزال الكتاب جملة فعلية في قوله ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ بخلاف الحديث عن بركة القرآن، فقد جاءت اسماً في قوله (مبارك) فما سرُّ المغايرة بين هاتين الصيغتين؟ وما دلالة صيغة كل واحدة منهما؟ جاءت لفظة (أنزلنا) بهذه الصيغة دلالة على تجدد هذا الإنزال، وتكرر حدوثه، فهو ينزل مرة بعد أخرى حسب الحوادث والوقائع، فلكون آيات هذا الكتاب العظيم متجددة الإنزال، جاءت هذه الصفة بهذه الصيغة ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وهذا بخلاف قوله (مبارك) فقد جاءت اسماً؛ لكون هذه الصفة ثابتة للقرآن لا تفارقه أبداً ولا تنفك عنه، فبركة القرآن ثابتة مستقرة، ومن هنا جاءت هذه الصفة (مبارك) اسماً دلالة على دوامها وثباتها[1]، فتأمل بلاغة القرآن العظيم، كيف غاير بين صيغ هاتين الصفتين؛ لما في دلالة كل صيغة من إيحاء ومعنى يُراد إثباتها وتقريرها.

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ عظمة هذا الكتاب، وجلالة قدره بيَّن الحكمة من إنزاله في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ ﴾ (الأنعام: 92)، وقد جاء العطف في هذه الجملة مبيناً أن القرآن منذَر به كل من لم يؤمن به، ويُقبل عليه، وذلك أن القرآن مبارك لمن آمن به، وأما من أعرض عنه فهو منذر له ومهدد، دل على هذا المعنى العطف الذي جاء في أول هذه الجملة، وذلك أن هذه الجملة معطوفة على لفظة ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ، والمعنى أن هذا القرآن نزل للبركة ولإنذار أم القرى ومن حولها.[2]

وقد قرئت ﴿ وَلِتُنذِرَ ﴾ بالياء والتاء [3]، فعلى قراءة ﴿ وَلِتُنذِرَ ﴾ المراد به الرسول ﷺ، فهو الذي أرسله ربه بشيراً ونذيراً، ينذرهم عذاب ربهم وبأسه،كما قال ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ (الرعد: 7)، فهو المأمور ﷺ بهذا الإنذار.[4]

---

(1) انظر: البحر المحيط: 182/4.
(2) انظر: إرشاد العقل السليم: 162/3.
(3) أي (لتنذر) في قراءة، و (لينذر) في قراءة أخرى. انظر: معاني القرآن وإعرابه: 271/2.
(4) انظر: التفسير الكبير: 82/13.

وعلى قراءة (ولينذر) يكون المراد به القرآن، فهو منذر إليهم بمواعظه، وبما جاء فيه من زواجر و قوارع، يدل على هذا المعنى كثير من الآيات التي تبين أن القرآن جاء منذراً، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ (إبراهيم: 52)، وقوله: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ﴾ (الأنعام: 51)، وقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ ﴾ (الأنبياء: 45)، وغيرها من الآيات.

فيكون في إسناد الإنذار إلى القرآن ـ في هذه القراءة ـ مجاز عقلي، وفي هذا إشارة إلى ما تضمنه القرآن من المواعظ والأوامر التي من شأنها أن يُنذر بها كل معرض عن ربه غافل عنه.

وقد قرئ بهاتين القراءتين جميعاً، وفي كل واحدة منهما معنى جاءت به، ودلت عليه، كما أن معنى كل واحدة منهما مكمل للأخرى، ودالٌّ عليه، فالرسول ﷺ منذر بالقرآن الذي أُنزل عليه، وأُمر بتبليغه، والصدع به، وإنذار أم القرى ومن حولها.

والمراد بأم القرى مكة، سُميت بهذا الاسم تشريفاً لها، وبياناً لمكانتها من بين سائر الأماكن والبقاع فهي أعظم القرى شأناً، كما أن في تسميتها بهذا الاسم إشارة إلى أن بها أول بيت وضع للناس[1]، ولأنها منشأ الدين، ومنطلق الرسالة، ومهبط الوحي[2]، ولأنها قبلة أهل القرى جميعاً، ومحط أنظارهم، ومهوى أفئدتهم[3]، فهي كالأم لسائر الأوطان والبقاع التي يلتف حولها الأولاد، ويرجعون إليها.[4]

والمراد بمن حولها: أي من حول أم القرى، من أحياء العرب، والمراد به: سائر البلدان والديار في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف مشاربهم، وأجناسهم من عرب وعجم،

(1) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 271/2، و انظر: جامع البيان: 271/7.
(2) انظر: البحر المحيط: 183/4.
(3) انظر: الكشاف: 35/2.
(4) انظر: التحرير والتنوير: 372/7، للاستزادة في سبب تسمية أم القرى بهذا الاسم ؛ انظر: التفسير الكبير: 81/13، و: المحرر الوجيز: 322/2، و: البحر المحيط: 183/4، وغيرها.

أي لتنذر كافة الخلق أجمعين.(1)

وفي قوله ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ (الأنعام: 92)، مجاز مرسل، بعلاقة المحلية، فقد أُطلق هذا اللفظ، وأُريد به الحالُّ فيها، وهم أهلها، والمعنى: لتنذر أهل أم القرى، وذلك أن الديار والأبنية لا تُنذر، وإنما أهلها هم الذين يُنذرون ويُخوفون، وتكمن بلاغة هذا المجاز أن فيه دلالة على عظم هذا الإنذار وغايته، كما أن فيه دلالة على عظم هذا الأمر الملقى على عاتق رسول الله ﷺ، فكأن المراد منه غاية الإنذار وأكمله، حتى لكأن هذا الإنذار يتجاوز هؤلاء المنذَرين إلى ديارهم وأبنيتهم وأحجارهم، فكأن فيه دعوة إلى أن ينذرهم أقصى درجات الإنذار، إعذاراً إلى الله، وإقامة الحجة عليهم، لعلهم يتقون، ومن هنا جاء هذا المجاز مشيراً إلى هذه المعاني كلها، ودالاً عليها.

يدل على عظم هذا الإنذار وبلوغه الغاية أن اقُتصر في هذه الآية من غاية نزول القرآن على الإنذار دون البشارة ليتلاءم هذا ويتوافق مع حال المشركين، ويشير إلى واقعهم، فهم بحاجة إلى من ينذرهم ويوعدهم ويهددهم بهذه الزواجر والقوارع، فقد تمادوا في غيهم، وازدادوا فيه، وأصروا واستكبروا استكباراً، فهم بحاجة إلى هذا الإنذار البالغ في القسوة والقوة والشدة.

ويدل ـ أيضاً ـ على هذا المعنى ويؤكده أن المنذَر به في هذه الآية محذوف؛ وذلك بغية تهويله وتفخيمه، فهم موعودون ومنذرون بعذاب الله وبأسه الشديد، كما أن في حذفه تعميماً له، ليعم كل ما فيه إنذارهم وزجرهم، ومن هذا كله يُعلم عظم هذا الإنذار وشدته، ومنه يتبين السرُّ في مجيء المجاز بهذا الأسلوب في هذا المقام في الحديث عن غاية نزول القرآن.

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ موقف المؤمنين الصادقين من هذا الكتاب الذي أنزله في قوله ﴿

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم: 175/2، و: إرشاد العقل السليم: 163/3.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ (الأنعام: 92)، فإذا كفر به المشركون وأعرضوا عنه فقد آمن به من هم خير منهم وأفضل، وهم المؤمنون.

وقد جاء الإخبار على إيمانهم بهذا الكتاب بصيغة المضارع (يؤمنون) وفي هذا دلالة على تجدد إيمانهم بالقرآن، و تكرر وقوعه منهم، فإيمانهم بالقرآن متكرر الوقوع، ومتجدد الحدوث مع تتجدد نزول كل آية من آيات القرآن عليهم، فهم دائماً وأبداً يزدادون بهذا القرآن إيماناً وتصديقاً.

وقد بيَّن ـ سبحانه ـ سبب إيمان هؤلاء بالقرآن، والباعث له، وذلك أنهم يؤمنون بيوم الحساب والجزاء والبعث والنشور، ذلك اليوم الذي يلاقون فيه جزاء ما قدموا من الأعمال الصالحة، وذلك أن هؤلاء القوم يخافون العاقبة وسوء المصير، والقرآن هو طوق النجاة، الموصل إلى الأمن والأمان في الآخرة، ومن هنا جاء إيمانهم به، وإقبالهم عليه.

وفي هذا إشارة إلى سبب كفر من كفر بالقرآن، وكذَّب به، وهو عدم إيمانه بهذا اليوم العظيم، فهؤلاء الكافرون لا يؤمنون بيوم الحساب والنشور، فالكافر لا يخاف العاقبة وسوء المصير، ولهذا تراه يعرض عن القرآن، ويكفر به، لأنه ـ وهذه حالته ـ لا يرجو من الله إن عمل بما فيه ثواباً، ولا يخاف إن لم يجتنب ما يأمره باجتنابه عقابه.[1]

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ صفة أخرى لهؤلاء المؤمنين، وأثنى عليهم بها في قوله ﴿ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ (الأنعام: 92)، جاء ذكر الصلاة هنا وتخصيصها؛ لشرفها ومكانتها في الإسلام، فهي عمود الدين، وأول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة، فإن قُبلت قُبل سائر عمله، وإن رُدت رُدَّ سائر عمله.

وفي تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ ﴾ على متعلقه ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة على عظم هذه الصلاة، ومنزلتها في الدين، فهي أشرف العبادات بعد

(1) انظر: جامع البيان: 272/7.

الإيمان، وأعظمها خطراً وشأناً .

وقد جاءت لفظة ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً؛ وذلك لإفادة تجدد حدوث هذا الفعل، وتكرر وقوعه منهم، وفي هذا مزيد ثناء على هؤلاء المؤمنين، فهم يحافظون على هذه الصلوات، ويؤدونها في أوقاتها، ويواظبون على أدائها على أكمل وجه كما أمر الله وشرع.

المجاز اللغوي

2- الاستعارة:

الاستعارة لغة: رفع الشيء، وتحويله من مكان إلى آخر، ومن ذلك قولهم: استعار فلان سهماً من كنانته، أي رفعه وحوَّله منها إلى يده، فهي مأخوذة من العارية، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر.[1]

ومن هنا يتبين أن هناك صلة وثيقة بين الاستعارة الحقيقية وبين الاستعارة المجازية، يقول العلوي . في بيان هذه الصلة وكشفها .: « وإنما لُقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة أخذاً لها من الاستعارة الحقيقية؛ لأن الواحد منا يستعير من غيره رداء ليلبسه، ومثل هذا لا يقع إلاَّ من شخصين بينهما معرفة ومعاملة، فتقتضي تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر، فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم جارٍ في الاستعارة المجازية، فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلاَّ بواسطة التعارف المجازية، كما أن أحد الشخصين لا يستعير من الآخر إلاَّ بواسطة المعرفة بينهما ».[2]

ومن هذه المعاني اللغوية جاء تعريف الاستعارة لدى علماء البلاغة والبيان، فقد جاء في تعريف الاستعارة أنها: « اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ».[3]

فهذا هو حدُّ الاستعارة « ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاستعارة هي من أدق أساليب البيان تعبيراً، وأرقها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى »[4]؛ وذلك أن

---

(1) انظر: لسان العرب: مادة: عور، و: علم البيان: 167، د. عبد العزيز عتيق.
(2) الطراز: 198/1.
(3) علم البيان: 196، د. بسيوني فيود، و انظر: في تعريفها . أيضاً: الإيضاح: 81/3.
(4) البلاغة فنونها وأفنانها: 158/2.

الاستعارة .كما يقول عبدالقاهر الجرجاني .: ((تُبرز هذا البيان في صورة مستجدَّة تزيد قدره نبلاً، وتُوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة))(1)، ثم بيَّن سبب هذا الأمر وعلته قائلاً: ((وذلك أنها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر... كما أنك ترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخُرس مبينة، والمعانيَ الخفية بادية جلية، وإذا نظرتَ في المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رونق لها لم تَزِنْها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تُكنها، إن شئتَ أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون)).(2)

وقد تحدث العلماء عن الاستعارة وأطنبوا فيها بذكر أقسامها، وشواهدها المتعددة من القرآن الكريم، وشعر العرب(3)، ومهما قيل عنها إلاَّ أنها تظل ((أَمدُّ ميداناً، وأَشدُّ افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً، من أن تُجمع شُعَبها وشعوبها، وتُحصر فنونها وضروبها)).(4)

أما الاستعارة في القرآن فقد بلغت حدَّ الإعجاز فيه، فهي لون من ألوان التصوير التي اتخذها، وأداة من الأدوات المفضلة إليه في التعبير عن معانيه، فهو ((يعمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيُعطيها ألوانها وظلالها، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يُضيف إليها الحركة فالحوار، فإذا

(1) أسرار البلاغة: 42.

(2) المصدر السابق: 43.

(3) للاستزادة في هذا انظر: أسرار البلاغة: 27، و: الإيضاح: 93/3، و: شروح التلخيص: 45/3، و: التصوير البياني: 189، و: معجم المصطلحات البلاغية: 82، وغيرها.

(4) أسرار البلاغة: 42.

هي شاخصة تسعى)).[1]

وسيتضح أثر هذه الاستعارات ومكانتها حين الوقوف مع أهم أقسامها من خلال ما ورد منها في آيات حديث القرآن عن القرآن .

من أقسام الاستعارات:

الاستعارة التصريحية الأصلية:

سُميت بذلك؛ لأنه صُرح فيها بلفظ المشبه به[2]، فهي . كما عرَّفها السكاكي: ((أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به))[3]، وسُميت أصلية؛ لأن اللفظ المستعار فيها اسم جامد غير مشتق، يدل على هذا قول السكاكي: ((الاستعارة الأصلية هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل وأسد، وكقيام وقعود)).[4]

ومن شواهد هذه الاستعارة في حديث القرآن عن القرآن، قوله . تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ﴾ (إبراهيم: 1).

يذكر . سبحانه وتعالى . في هذه الآية إنزاله للقرآن العظيم في معرض الامتنان على هذه الأمة بالقرآن الكريم، والتفضل عليها بذلك، وقد جاءت لفظة ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ نكرة، وفي ذلك تعظيم لهذا الكتاب وتفخيم له، فقد أفاد هذا التنكير تعظيم شأن القرآن، وتفخيم أمره، فهو كتاب وأي كتاب قد حوى المحامد كلها، وبلغ الغاية القصوى من الرفعة والمنزلة والشأن والشرف، فهو أشرف الكتب وأجمعها، أنزله الله على أشرف الخلق وأفضلهم محمد ﷺ.

---

(1) التعبير الفني في القرآن: 197.

(2) انظر: بغية الإيضاح: 93/3.

(3) مفتاح العلوم: 176.

(4) المصدر السابق : 179.

يدل على عظمة الكتاب وجلالة قدره إسناد نزوله إلى ضمير التعظيم في قوله ـ تعالى ـ ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ ففي هذه الصيغة تعظيم للكتاب المنزل، ودلالة على هذا المعنى وتأكيد له؛ وذلك أن في هذا الجمع تعظيماً له ـ سبحانه ـ على إنزال القرآن، وهو ـ سبحانه ـ لا يُعظم نفسه إلاَّ على أمر عظيم، وحسبك بإنزال القرآن جلالة وقدراً.

جاء إنزال القرآن في هذا المقام مبنياً للمعلوم في قوله ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ بخلاف الآية التي تقدمتها في قوله ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأعراف: 2)، فقد بُني فيها فعل إنزال القرآن للمجهول، والحكمة في هذه المغايرة ـ والله أعلم ـ لما كان فاعل إنزال القرآن معلوماً وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذ لا يتأتى هذا الفعل ولا يقدر عليه أحد سواه، فلما كان الأمر كذلك حُذف الفاعل لهذا الغرض، كما أن في حذفه إيجازاً، أما سبب ذكر الفاعل في هذه الآية؛ فلأن المقام هنا مقام امتنان منه ـ سبحانه ـ على هذه الأمة بإنزال القرآن، فناسب الامتنان، وهذا التفضل ذكر فاعل هذا الأمر ؛ لتلهج الألسنة بذكره وشكره، ولتتعلق القلوب به، ولترتبط النفوس بهذا الرب الذي امتنَّ عليها بإنزال هذا الكتاب العظيم.(1)

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ إنزاله لهذا الكتاب، وبعد أن عظَّمه، وبيَّن قدره، ذكر الغاية من نزوله في قوله ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1)، فقد نزل القرآن لهذه الغاية، وهي غاية عظيمة تتناسب مع عظمة القرآن، وجلالة قدره.

وقد دلَّ على هذه الغاية، وأشار إليها حرف اللام في قوله ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ ـ بدلالته على التعليل ـ، فهذه هي غاية نزول القرآن، والهدف المنشود من ورائه، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد قُرئ (لتخرج) بالتاء، والمراد به رسول الله ﷺ، وبالياء ، والمراد به الكتاب الذي

(1) انظر: التحرير والتنوير: 179/12.

أنزله الله[1]، وفي إسناد إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلى رسول الله ﷺ مجاز عقلي، بعلاقته السببية، لكون رسول الله ﷺ هو الذي يبلِّغهم القرآن، ويتلوه عليهم، ويدعوهم إلى الإيمان به، والإقبال عليه، وهو الذي ينذرهم ويخوفهم مغبة الكفر به، والإعراض عنه، وفي إسناد هذا الأمر إليه تشريف له ﷺ، ورفع من قدره، ومكانته، كما أن في هذا المجاز دلالة على الجهد الذي يبذله ﷺ في تبليغ الدعوة، وحرصه الشديد على إيصالها لهم، فقد كانت دعوة الناس، ودخولهم في هذا الدين همّه ﷺ، وهدفه الذي يسعى إليه.

كما أن قوله ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ فيه مجاز مرسل بعلاقة الكلية؛ وذلك أن التعريف الذي فيها للجنس، يشمل كل الناس، ولكن لا يخرج من هذه الظلمات إلى النور إلاَّ من هدى الله قلبه لهذا الدين، ووفقه للدخول فيه، والإيمان به، دون من أصرَّ على الكفر، وجحد وعاند، بيد أن في هذه اللفظة ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ ـ بهذا العموم ـ إشارة إلى مبعثه ﷺ إلى الخلق كافة، فهم مبعوث للناس أجمعين.

وقد ذُكرت لفظتا (الظلمات، والنور) في هذا المقام على جهة الاستعارة للكفر والإيمان، والضلالة والهدى، والمعنى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخاطب رسوله محمداً ﷺ مخبراً إياه أنه أنزل عليه القرآن ليُخرج به من آمن، واتَّبع ما جاء فيه، واستمسك به من الكفر الذي هو كالظلمة بل أشد إلى الإيمان الذي هو كالنور بل أشد إضاءة وإشراقاً.

وقد كثرت هذه الاستعارة في القرآن الكريم، بل إن كل ما ذُكر في القرآن الكريم ـ كما يذكر الرماني ـ من ذكر الظلمات إلى النور فهو مستعار، ثم بيَّن الرماني أن هذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة وآكد في المعنى المراد إثباته وتقريره.[2]

والاستعارة في هذه الآية تصريحية أصلية، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة ودلالتها في حديث القرآن عن القرآن أن فيها إبرازاً للمعنى المراد إثباته وتقريره هنا وإيضاحه، فقد أبرزت

(1) قرئ بالياء أي (ليخرج) انظر: الكشاف: 6/2.

(2) انظر: النكت في إعجاز القرآن: 92 .

الاستعارة هذه المعاني المعقولة الخفية وأبرزتها وأظهرتها في صورة محسوسة حية متحركة كأن العين تراها، واليدَ تلمسها، وهذا ما أشار إليه الرماني في حديثه عن هذه الاستعارة في قوله ((الظلمات والنور مستعار، وحقيقته من الجهل إلى العلم، والاستعارة أبلغ؛ لِما فيها من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار)).(1)

فقد أُستعير في هذه الآية الظلمات للكفر والضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منهما،كما استُعير النور للإيمان والهدى بجامع الهداية والرشاد فيهما معاً، كما أن في هذه الاستعارة تصويراً دقيقاً للواقع الذي يعيشه كل واحد منهما، ففي لفظة﴿ ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ إيحاء عجيب، وتصوير دقيق لواقع ذلك الرجل المتخبط في ظلمات الكفر والشرك والضلال، فهو يعيش في ظلام دامس مُطبق بهيم، قد طُمست معالم الطريق أمامه، فلا يهتدي أبداً، يتخبط في الشهوات، ويتعثر في الملذات، فهو في ظلمة شديدة السواد، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

وفي مجيء لفظة ﴿ ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ مجموعة إشارة إلى هذا المعنى ـ أيضاً ـ ودلالة عليه، ففيها تصوير لمدى تراكم هذا الظلام، وشدة حلكته، فأنى له ـ والحالة هذه ـ أن يصل إلى النور، ويدرك غايته ؟!(2)

كما أن في لفظة (النور) تعبيراً دقيقاً، وتصويراً عجيباً للواقع الذي يعيش فيه هؤلاء المهتدون المنتفعون بهدي القرآن ومواعظه، فقد كشفتْ لفظة ﴿ ٱلنُّورِ ﴾ ـ بهذه الدلالة ـ الهداية، مُبينة أنها مصباح مضيء، وسراج منير، تضيء لهم ما بين جوانحهم وجوانبهم، كما أنها تُنير لهم ـ كذلك ـ الدرب ليسلكوه، وتبين لهم معالمه، فيسيرون فيه على بينة ووضوح، ليصلوا إلى غاياتهم، وينالوا مرادهم، ويحققوا أهدافهم، بسبب انتفاعهم من هذا النور، وتمسكهم به، وإقبالهم عليه.

وهكذا جاءت الاستعارة في هاتين اللفظتين (الظلمات والنور) مبينة واقع كل صنف

---

(1) المصدر السابق: 92 .

(2) انظر: الإعجاز في نظم القرآن: 104، د. محمود السيد شيخون.

من هذين الصنفين، وواقع من آمن بالقرآن، وانتفع به، وواقع من أعرض عنه، وكفر به، فإن بين القوم فرقاً شاسعاً، وبوناً بعيداً واسعاً، كما هو الحال والفرق بين الظلمات والنور.

كما في هذه الاستعارة إشارة من طرف خفي إلى نهاية كل فريق من هذين الفريقين، ومنزلة كل واحد منهما في الآخرة، ففي استعارة الظلمات للكفر إشارة إلى أن هذه الظلمات قد تقود أصحابها إلى دار الظلمات والدركات، وهي النار، كما أن هذا النور قد يقود أصحابه إلى دار الكرامة والدرجات وهي الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين الصادقين المقبلين على كتابه الذي أنزله، وبيَّن لهم غايته.(1)

وقد زاد هذه الاستعارة قوة وجمالاً، وأظهر هذه المعاني الكامنة فيها وأكدها ما تمَّ فيها من طباق بين هاتين اللفظتين (الظلمات والنور)، ففي الطباق بين هذين المعنيين المتضادين إشارة إلى واقع من كفر بالقرآن، وأعرض عنه، كما أن فيه ذكراً للحالة التي يؤول إليها من يُؤمن بالقرآن، ويُقبل عليه، فيكون في هذا ترغيب بالإيمان بالقرآن، وتنفير من الكفر به، والإعراض عنه.

وهكذا ومن خلال هذه المعاني كلها تبرز قيمة الاستعارة، وأثرها في أداء معانيها، وتحقيق غاياتها والمراد منها، فلا عجب بعد هذا أن يجعل عبدالقاهر الجرجاني هذا النوع من الاستعارة أبلغ أنواع الاستعارات، وينعتها بأنها الضرب الصميم الخالص من الاستعارة، التي ضابطها عنده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب(2)، ثم بيَّن قيمة هذه الاستعارة قائلاً: ((واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها)).(3)

(1) انظر: حاشية الصاوي: 2 /279.
(2) انظر: أسرار البلاغة: 65 .
(3) المصدر السابق: 66 .

ولا يخفى ما تضمنته هذه الاستعارة من دلالة على عظم القرآن الكريم، وبيان منزلته، وجلالة قدره أن كان مُخرِجاً من آمن به، وأقبل عليه من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الهدى والإيمان، وذلك لما جاء في تضاعيفه من البينات الواضحة، ومن الدلائل والمنائر التي تبين أن القرآن نازل من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن هنا تتجلى بلاغة الاستعارة وأثرها في حديث القرآن عن القرآن، فقد جاءت لبيان عظم القرآن، والإشارة إلى ما تضمنه بين دفتيه من عظائم الأمور وجليلها، كما أن فيها بياناً لأثر القرآن، والغاية التي نزل من أجلها، وسعى إلى تحقيقها، والوصول إليها، وانقسام الناس حوله إلى هداة وضلاَّل، هداة نعموا بنور القرآن، وإشراقاته، وضلال آثروا الشقاء ، والتخبط في دياجير الفسق والضلال.

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ أن هذا الأمر تمَّ بإذنه وتوفيقه في قوله ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1)، فقد بيَّن حرف الباء ـ بدلالته على السببية ـ أن خروج هؤلاء من الظلمات إلى النور توفيق منه ـ سبحانه وتعالى ـ ومنَّة ولطف بهم، فهو الهادي والموفق لسلوك هذا الطريق المستقيم، فهو الذي هداهم إلى سلوكه، وذللَّ لهم صعابه، وهوَّن عليهم مشاقه ومتاعبه، وفي هذا حث لهم على الاستعانة به، وطلب العون والنصرة والتأييد منه؛ لكونهم لا يملكون لأنفسهم حولاً ولا قوة لولا نصرته وتأييده، فله الفضل وحده، والمنَّة أن هداهم إلى سلوك هذا الطريق، وإلى الإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، فأخرجهم به من الظلمات إلى نور الطاعة والإيمان.

وقد أكدَّ هذه المعاني وأظهرها ما جاء في نظم الآية من إظهار في مقام الإضمار، وذلك أن مقتضى ظاهر الآية أن يقال: (بإذننا) لدلالة قوله (﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ في صدر الآية، ولكن جاء الإظهار في هذا السياق ليبين ما تضمنه الاسم المظهر، وذلك أن في ذكر اسم (الرب) هنا في قوله (ربهم) دلالة على أن إنزال الكتاب، وإخراج الناس به من الظلمات إلى النور من دلائل لطفه ـ سبحانه ـ بعباده، وتفضله عليهم، وكمال تربيته لهم.

يؤكد هذا المعنى . أيضاً . ويدل عليه إضافة هؤلاء العبيد إلى الاسم الجليل في قوله ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ فهو مالك أمرهم، وسيدهم، القائم على مصالحهم، المدبر لشؤونهم، وفي هذا دلالة على أنه . سبحانه . لم يترك عباده سدى، ولم يدعهم هملاً، بل أنزل عليهم كتاباً يخرجهم به من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.[1]

ثم ذكر . سبحانه . أنه يُرشد هؤلاء الناس، ويُوفقهم إلى صراطه صراط العزيز الحميد، والصراط هنا بدل من قوله ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم: 1)، بإعادة حرف الجر[2]، فهذا الصراط الذي يوفق الله عباده المؤمنين إلى سلوكه هو النور الذي يخرجهم الله باتباع هذا الكتاب من الظلمات إلى ذلك النور.[3]

وفي لفظة ﴿ صِرَٰطِ ﴾ استعارة تصريحية أصلية، والمراد به الإسلام، فقد استُعيرت لفظة (صراط) للدين الحق، وهو الإسلام، وذلك أن كل واحد منهما مُوْصل إلى المطلوب، كما أن كل واحد منهما يهدي سالكه، ويدلُّه إلى مبتغاه، ويرشده إليه.

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة أن فيها تصويراً لهذا الدين، وتبياناً له، وذلك بإخراجه من المعقول إلى المشاهد المحسوس، كما أن فيه دلالة . بما تضمنته هذه اللفظة من إيحاء . على طبيعة هذا الدين، وأنه لا يزيغ بصاحبه، ولا يضل به سواء السبيل، وهذا الصراط هو: شرع الله ودينه الذي ارتضاه لخلقه، وشَرَعَه لهم، فحسبك به صراطاً مستقيماً، وديناً بيِّناً قويماً.

وقد زاد هذا الصراط عظمة وفخامة أن أُضيف إليه . سبحانه . في قوله ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1)، فهو صراطُ مَنْ عزَّ فغلب، ومَنْ منَّ وتفضل فحُمد، وفي ذكر هذين

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 392/5.

(2) انظر: إملاء ما منَّ به الرحمن: 65/2.

(3) ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: ماهذا النور الذي أخرجهم إليه ؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد. (انظر: الكشاف: 365/2).

الوصفين ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ في هذا السياق بعد ذكر الصراط الموصل إليه، في هذا دلالات وإيحاءات، تخدم معنى هذه الآية، وتفي بغرضها الذي سيقت من أجله، ففي ذكر العزيز دلالة على أن من سلك هذا الصراط فإنه عزيز بعز الله له، ولو كان وحده، فحسبه الله مؤيداً ونصيراً.(1)

كما أن في هذا الوصف إشارة إلى أنه لا يذِلُّ سالك هذا الصراط، ولا يخيب سائله؛ لأنه ـ سبحانه ـ العزيز الذي لا يُغالب، ولا يُمانع، فهو القاهر فوق عباده، المذِلُّ لكل من سواه.

كما أن في مجيء هذا الوصف هنا إشارة إلى أن إنزاله لهذا الكتاب من دلائل قدرته وعزته، ومن دلائل ـ كذلك ـ غلبته ومنعته(2) ـ فمجيء الوصف في هذا السياق إشارة إلى هذه المعاني، وتوكيد عليها.

وجاء وصفه ـ سبحانه ـ بأنه (حميد) دلالة على استحقاقه المحامد كلها على تفضله على عباده المؤمنين، وسابغ نعمائه عليهم، فهو المحمود على جميع أفعاله وأقواله، وعلى شرعه ودينه،كما أن في هذا الوصف ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ دلالة على أن إنزال هذا الكتاب، وإخراجَ الناس به من الظلمات إلى النور من أكبر النعم، وأجلها التي يجب على العبد حمده عليها، وشكره إياها، فإن عظم النعمة وقدرها مستوجب مقابلتها بالشكر الجزيل، والحمد والثناء العظيم الذي يتناسب مع عظمة تلك النعمة وقدرها، وأي نعمة تعدل نعمة إنزال القرآن العظيم، الذي خرج الناس به، ويخرجون من ظلمة الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان، فشكر هذه النعمة، وحمده عليها يجب أن يكون عظيماً لائقاً بهذا الأمر العظيم، والهبة الجزيلة، ومن هنا كان ـ سبحانه ـ محموداً على كل لسانٍ من أدرك عظم هذه النعمة، وحسَّ بفضلها وأثرها عليه.

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن: 5/3 .

(2) انظر: المحرر الوجيز: 321/3 .

● ومن أنواع الاستعارات في حديث القرآن عن القرآن:

الاستعارة التصريحية التبعية:

وهي التي تكون في الأفعال، والمشتقات والحروف(1)،ومن شواهد الاستعارة التبعية في الأفعال في حديث القرآن عن القرآن قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الحجر: 94).

يأمر ـ سبحانه ـ رسوله محمداً ﷺ تبليغ رسالته قومه، والناس أجمعين، وأن يُبلِّغهم القرآن، وألاُّ يبالي بهم، ولا يلتفت إليهم في تبليغ القرآن، والجهر به في أرجاء المعمورة كلها، هذا هو معنى هذه الآية، وذا مراد الله من رسوله ﷺ حين أمره بهذا الأمر، فهو أمر منه ـ سبحانه ـ بالجهر بالدعوة، وإعلانها، وأن يتلو عليهم القرآن، ليفرق به بين الحق والباطل، وأن يُواجه به المشركين.

بيد أن نظم الآية لم يسلك هذا المسلك في ذكر هذا المعنى، ولم يرد أن يعرضه بهذا المعرض، وبتلك الصورة، وإنما جاء النظم القرآني بهذا المعنى بطريق الاستعارة التبعية، وذلك أن في لفظة (اصدع) استعارة تبعية، وحقيقة هذه الاستعارة: بلِّغ ما تُؤمر به، فقد شُبه التبليغ بالصدع، بجامع التأثير في كلٍّ، ثم اشُتق من الصدع بمعنى التبليغ اصدع بمعنى بلِّغ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، وأدل على غرض الآية، وبيان المراد منها؛ وذلك أن الصدع وإن كان بمعنى التبليغ، والجامع لهما واحد وهو الإيصال، إلاَّ أن الإيصال الذي له نفاذ وتأثير كصدع الزجاجة أشد أثراً وشرحاً من التبليغ، فربما لا يكون له أثر أصلاً، بخلاف الصدع فإن له أثراً ولا بد. (2)

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة، ويظهر أثرها في سياق هذه الآية في حديث القرآن عن

(1) انظر: مفتاح العلوم: 180 .

(2) انظر: النكت في إعجاز القرآن: 87 .

القرآن، وذلك أن في هذه الاستعارة دعوة منه . سبحانه . لهذا للنبي الكريم ﷺ أن يُظهر دعوته، وأن يُبالغ في إظهارها، والدعوة إليها؛ لكي يكون الدين في وضوح الصبح، في سطوع أمره، وظهور حجته، لكي لا يُشكل نهجه، ولا يُظلم فجه، يدل على هذا المعنى، ويشير إليه كون هذا الأمر(اصدع) مأخوذاً من الصدع وهو الصبح؛ وذلك لشدة ظهوره، وقوة بيانه.(1)

كما أن في هذه الاستعارة دلالة على المضي في الدعوة، والقيام بمتطلباتها، والنهوض بأعبائها، بكل عزم وحزم، ففي هذه الاستعارة أمر لإمام المجاهدين ﷺ أن يجهر بدعوته، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن لا يلين في نشر الدعوة ولا يستكين، فالجهاد في سبيل الله شاق عسير، لا بد له من عزم وحزم، وعزيمة وإصرار، فلا محاباة في نشر هذا الدين، ولا مجاملة في دعوة الناس إلى الإسلام، ومن هنا كان الداعية بحاجة إلى الصبر في تحمل نشر الدين، وفي تحمل الشدائد والصعاب، وما يلاقيه من عنت المعرضين، وجحود المنكرين، فما أكثر أعداء هذا الدين، لا كثرهم الله.(2)

ومن دلالات هذه الاستعارة . أيضاً . أن فيها إشارة إلى الأثر البالغ الناتج من الصدع بالقرآن، بسبب ما اشتمل عليه من الزواجر والقوارع، فإن هذا القرآن يحدث أثراً في نفوس سامعيه، المصغين إليه ولا بد، ففي هذه الاستعارة إشارة إلى ما يحدثه القرآن في النفوس والقلوب من الأثر الواضح، فإنه يتغلغل في أحشائها، ويصول في سويدائها ويجول محدثاً أثراً لا ينمحي أثره، لا يحول ولا يزول.

كما أنَّ في هذه الاستعارة دلالة على ما يحدثه القرآن في النفوس من تغيير وتحوّل، فهو يقتلع ما ترسب فيها من الرواسب والعادات، والتقاليد الموروثة من الجاهلية الأولى، فسيحدث القرآن أثراً بالغاً في هذه النفوس لا يلتئم أبداً، ولا يعود كما كان من ذي قبل، فكأن في هذه الاستعارة دلالة على أن القرآن سيقتلع من هذه النفوس ما ترسب فيها، وما

(1) انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: 119، للشريف الرضي.

(2) انظر: أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني: 255، د.عمر محمد باحاذق.

تراكم فيها على امتداد السنين والآجال، وأن هذا الشرخ البالغ، والأثر الكبير سيبقى في هذه النفوس ولن يفارقها، بل ولن تعود إليه أبداً، وذلك أن هذا الأثر، وذلك الصدع مثل الزجاجة شرخها لا يُشعب.

ومن هنا جاءت الاستعارة في لفظة (اصدع) دالة على هذه المعاني كلها، ومشيرة إليها، ناهيك عما في هذه اللفظة من الجرس القوي المجلجل الذي يُوحي بدلالات هذه اللفظة وإيحاءاتها.

ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن من خلال هذه الاستعارة ودلالاتها في حديثه عن القرآن، فقد بيّنتْ هذه الاستعارة أثر القرآن، وقوته في نفوس مستمعيه، موضحة أن له أثراً عظيماً بالغاً في هاتيك النفوس.

ولا غرو أن يصدع النبي ﷺ بهذا القرآن؛ وذلك أنه مأمور بهذا الأمر من قِبل ربه، ولعل هذا هو السرُّ في ذكر القرآن في هذا السياق بطريق الموصول في قوله ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فقد أمره ربه بهذا الفعل، وحثه عليه، فجاءت الاستعارة في قوله ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ دلالة على أنه ﷺ قام بهذا الأمر خير قيام، وعلى أكمل وجه وأتمه، فما هو ﷺ إلاَّ مبلغ عن ربه القرآن، ومأمور بذلك من قِبل مَن أرسله، ولعل في بناء الفعل (تُؤمر) للمجهول إشارة إلى هذا المعنى، فقد أُمر ﷺ بإبلاغهم القرآن والصدع به، كما أن في حذف متعلق ما يُؤمر به دلالة على عموم هذا الأمر وشموله، وذلك ليشمل كل أمر أُمر النبي ﷺ بتبليغه.

ثم يأمره ـ سبحانه ـ بعد أن أمره بالصدع بالقرآن أن يُعرض عن المشركين في قوله ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد وُصلت هذه الجملة بالتي قبلها؛ وذلك لاتفاق هاتين الجملتين في الإنشائية، فقد بدأت كل واحدة منهما بالأمر، كما أن بين هاتين الجملتين ارتباطاً وثيقاً في المعنى؛ وذلك أن هذا الإعراض مرتبط ومترتب على الصدع بالقرآن الذي أُمر النبي ﷺ به، فكأن في الأمر بالإعراض عن هؤلاء المشركين إشارة إلى ما سيترتب على الصدع، وذلك أن الجهر بالقرآن والصدع به سيُواجه بالإنكار من قِبل المشركين، والسخرية والاستهزاء، كما أنهم سيسعون جاهدين إلى صد النبي ﷺ عن الصدع، والحيلولة دونه ودون مبتغاه، والوصول

إلى غايته، فيأتي هذا الأمر (أعرض) أمراً منه ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ ألاّ يلتفت إلى هؤلاء المشركين الذين يريدون أن يصدوه عن آيات الله، وألا يبالي بهم، وألا يصغي إلى سخريتهم واستهزائهم،وألا يلتفت إليهم ألبتة، بل يمضي قدماً في إظهار الدعوة، والجهر بها بكل عزيمة وإصرار في تبليغ دعوته، والصدع بالقرآن في أرجاء مكة كلها، فالله مؤيده ونصيره، كما أنه ـ سبحانه ـ متم نوره ولو كره الكافرون.

ومن أنواع الاستعارات في حديث القرآن عن القرآن:

الاستعارة التبعية بالحروف(1):

ومن الشواهد عليها قوله ـ تعالى ـ ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزمر: 22).

في هذه الآية بيانٌ لذكر مَن انتفع بالقرآن فازداد نوراً على نور، كما أن فيها بياناً لمن أعرض عنه فعاقبه الله بقسوة قلبه، وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري المُسلَّط على مَن يُسوي بين الفريقين، فينكر ـ سبحانه ـ على مَن يظن ألاَّ فرق بين مَن ينشرح صدره للإسلام، ويعمل بأوامره وينزجر عن نواهيه، فهو قرين العين مطمئن القلب، وبين من يعرض ويقسو قلبه لهذا الذكر، والمعنى أن الله ـ سبحانه ـ يقول منكراً: ((أفمن شرح الله

(1) لا بد أن يُعلم ـ أولاً ـ أنه لا مدخل للمجاز في الحروف ؛ وذلك أن الحروف ليس لها معانٍ مستقلة في نفسها، وإنما تدل على معانٍ في غيرها، ومن هنا لم يكن للمجاز مدخل فيها، فإذا عُلم هذا فالاستعارة التبعية التي تكون في الحروف إنما تقع في متعلق معنى الحروف؛ لأنه هو الذي يستقل بالدلالة، وليس في الحرف نفسه.

ومتعلق معنى الحرف عند الخطيب هو مدخوله، وعند الجمهور هو المعنى العام الذي نُفسر به الحرف، فحينما نقول: فلان في نعمة، فالاستعارة عند الخطيب في مدخول الحرف، وهي النعمة، بينما يجعل الجمهور الاستعارة في الارتباط الحاصل بين النعمة وصاحبها، أي بالظرفيه التي هي علاقة ارتباط بين الظرف والمظروف (انظر: الإيضاح: 121/3، و: شروح التلخيص: 116/4)، والراجح في هذا قول الجمهور، فهو الأصح في إجراء الاستعارة ومعناها.

صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتدِ لقسوته))[1]، وخبر (مَن) محذوف، وذلك لأن الكلام دالٌّ عليه، وتقديره: كمن قسا قلبه، يدل عليه قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ (الزمر: 22) [2]، كما أن في حذفه ازدراء به، وتحقيراً لشأنه، إذ ليس أهلاً أن يُذكر في مقابل مَن انشرح صدره.

وقد جاء في الأحاديث عن رسول الله ﷺ بيان لمعنى انشراح الصدر، فقد قيل له يارسول الله: ((كيف ينشرح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلبَ انشرح وانفتح، فقلنا يارسول الله: وما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور،والاستعداد للموت قبل نزوله)).[3]

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ أن سبب هذا الانشراح ومردُّه الإسلام بما فيه من شرائع وأحكام توافق العقل والفطرة، لذا فإن النفوس تؤمن به وترضاه، كما نلمح هذا المعنى من (اللام) في قوله ﴿ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ وذلك أن هذه اللام لام العلة، إذ المعنى شرح الله صدورهم لأجل قبولهم الإسلام[4]، وفي هذا إيحاء أن الإسلام ـ بأحكامه السمحة، وشرائعه السامية ـ يمدُّ أهله بالانشراح والطمأنينة، فهو في هذا معين ثرٌّ لاينضب.

ومما يسترعي الانتباه في هذه الآية أن جاء اختيار لفظة الصدر في قوله (صدره) دون القلب، والسرُّ في توسعة الصدر، وجعله محلاً للإسلام دون القلب هو ((شدة هذا الاتساع، وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر، فضلاً عن القلب))[5]، كما أن إسناد الانشراح إلى الله دليل على أن هذا الشرح تمَّ على خير الوجوه وأكملها لِمَ لا وهو شرح

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 351/4.

(2) انظر: التحرير والتنوير: 379/23.

(3) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: 219/7، للسيوطي.

(4) انظر: التحرير والتنوير: 380/23.

(5) روح المعاني : 257/23.

حكيم عليم بهذه القلوب وما يُصلحها.(1)

ثم ذكر . سبحانه . العاقبة الحميدة لهذا الانشراح بأن بيّن أنه على نور من ربه في قوله ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الزمر: 22) أي على بصيرة بتدبره لهذا الكتاب، والعمل بمقتضاه، وقد اصطُفي هذا التعبير ﴿ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ دون غيره لِمَا في هذا الأسلوب من دلالة الاستقرار في هذا النور والاستمرار فيه.(2)

وفي هذا الحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾ . بدلالته . على الاستعلاء . استعارة تبعية، فقد استُعير الاستعلاء لمن شرح الله صدره للإسلام، وأقبل عليه، ولمن تمكَّن من هذا النور، وثبت عليه، وذلك بجامع الاستعلاء في كلٍ، ودُلَّ على هذه الاستعارة بالحرف الدال على الاستعلاء، وتكمن بلاغة الاستعارة أن فيها دلالة على أن من شرح الله صدره للإسلام قد استعلى على هذا النور، وتمكن منه فكأنه راكب على جواد يصرفه حيث يشاء، ويُركضه حيث أراد(3)، وذلك لمزيد قوته، وظهور حجته، وسطوع برهانه.

كما أن تنكير لفظة ﴿ نُورٍ ﴾ دليل على عظم هذا النور ومكانته، ثم زاد . سبحانه . في نعت هذا النور حين ذكر أنه من الرب اللطيف بعباده المحسن إليهم الذي غمرهم ببره وإحسانه، كما نلمح هذا . أيضاً . من هذه الإضافة (ربه) فما ظنك بنور صادر عن الرب العظيم منه يبدأ ويستقر في قلب المؤمن، فهو نور عظيم كامل لا تخالطه ظلم الشبهات ولا الشهوات.

ثم ذكر . سبحانه . الطرف المقابل للذين انشرحتْ صدورهم للإسلام، وامتلأتْ قلوبهم بفيض حبه، ذكرهم متوعداً ومهدداً في قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: 22) بدأ ذكر حالهم بلفظة (ويل) وفي هذه اللفظة ((من الرهبة والزجر الشيء العظيم، كما أن فيها من الإيجاز الأمر البديع، وذلك أنها أجملتْ سوء حالهم بما تدل عليه هذه الكلمة من

(1) انظر: المصدر السابق: 258/23.
(2) انظر: المصدر السابق: 257/23.
(3) انظر: نظم الدرر: 257/23.

بلوغهم أقصى غايات التعاسة والشقاء»[1]، وذلك أنهم قاموا بأعمال عظيمة فظيعة استحقوا عليها هذا الجزاء، وما ربك بظلام للعبيد، حسبك أن منها تحجر قلوبهم وصلابتها، فهي لا ترقُّ لذكر الله ولا تلين.

ومن هنا يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو: أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان، كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: 28) فكيف كان في حق هؤلاء سبباً لحصول قسوة قلوبهم؟ والجواب: أن هذا الذكر كان قسوة لهذه القلوب بسبب عظيم قسوتها وخرابها، وكثرة الكفر الذي يعتلج في صدورهم، وهذا هو الذي جعل سبب الرقة سبباً للقسوة، وهذا أمر معلوم ومشاهد، فإن بعض الأطعمة الطيبة تكون داءً لبعض المرضى[2]، وكذلك حال القرآن مع هذه القلوب لا يزيدها إلا قسوة وتحجراً، وذلك بسبب إعراضها عنه، وكفرها به.

وإن هذه القسوة من أعظم العقوبات العاجلة التي يُعاقب بها العبد، يقول مالك بن دينار: « ما ضُرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب »[3]، وفي الحديث عن رسول اللهﷺ قال: « لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القاسي »[4]، ولا يُرقق هذا القلب ويُهذبه ويُلينه إلاّ القرآن، وصدق الله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الرعد: 28).

وقد اختُلف في معنى (من) في قوله ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ فقيل: معناها: من أجل ذكره، فهي سببية، أي إذا ذُكر الله عندهم اشمأزوا وزادت قلوبهم قسوة بسبب هذا الذكر، وقيل:

(1) التحرير والتنوير : 381/23.

(2) انظر: حاشية الصاوي: 371/3.

(3) المحرر الوجيز: 527/4.

(4) أخرجه الترمذي: 130/7، كتاب الزهد، باب: أبعد الناس من الله القلب القاسي، من حديث ابن عمر، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

إن معناها (عن) أي عن ذكر الله، وقد ذكر الزمخشري الفرق بين (من) و (عن) قائلاً: ﴿ إذا قلتَ: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى: أن القسوة كانت من أجل الذكر وسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى غَلُظ عن قبول الذكر،وجفا عنه ﴾[1]، وقيل: ﴿ إن (قاسية) تضمن معنى خالية فذلك تعدت بـ(عن) والمعنى: أن قلوبهم خالية من ذكر الله ﴾[2]، هكذا يتغير المعنى بتغير هذه الحروف، وذلك بالنظر لدلالة كل حرف، وما يتوافق مع معنى الآية، من خلال تلك الدلالة بيد أن الأرجح في معنى (من) أن تكون للسببية؛ لِمَا في هذا المعنى من زيادة في التشنيع عليهم، ولما فيه من بيان لفساد تلك القلوب وخرابها؛ ﴿ وذلك أن القاسي عن الشيء من أجل الشيء نفسه أشد تأبياً عن قبوله من القاسي عنه بسبب آخر ﴾[3]، فهؤلاء تقسو قلوبهم لذات الذكر وليس لسبب آخر مما يدل على سوء طويتهم، والخبث المتأصل في تلك القلوب.

يدل على هذا المعنى أن القسوة أُسندت إلى قلوبهم في قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ (الزمر: 22) وفي هذا دلالة على أن هذه القسوة جبلة فيهم وطبيعة، وصفة ملازمة لهم، لا تنفك عنهم أبداً، فهي متأصلة في ذواتهم، ونابعة من قلوبهم، وهذا هو السرُّ في إسناد القسوة إلى تلك القلوب[4]، والعجب العجاب أن تقسو تلك القلوب من ذكر الله من القرآن، الذي أنزله هدى وشفاء.

وفي إضافة الذكر إلى الله تشريف له وتعظيم، كما أن فيها تسفيهاً لهم وتشنيعاً، إذ تقسو قلوبهم من ذكر الله المتضمن الهدى والصلاح والفلاح، وقد آثر النظم القرآني كلمة (القلب) على (الصدر) في ذكر القسوة، في قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ (الزمر: 22) وفي هذا دليل على فساد هذا العضو، الذي إذا فسد فسد الجسد كله، كما جاء في الحديث

(1) الكشاف: 394/3.
(2) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: 194/3.
(3) حاشية زادة: 699/4 .
(4) انظر: روح المعاني: 257/23 .

الصحيح.(1)

والناظر في نظم هذه الآية وسبكها لمما يُلفت نظره فيها ـ بعد التأمل والتدبر ـ أمران:

الأمر الأول: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قابل انشراح الصدر بالقسوة، مع أن المتبادر للذهن أن يُعبر بالضيق، فما السرُّ في هذه المغايرة، وما الحكمة المنطوية في ذكر القسوة ؟ الحكمة في ذكر القسوة هنا التعبير عن حالة أولئك الأقوام، والكشف حقيقتهم مع ذكر الله، وذلك أن حقيقة حالهم أنهم يرفضون ذكر الله جملة وتفصيلاً، ولا يقبلون منه شيئاً أبداً، فلو جاء التعبير بالضيق لأشعر ذلك أنهم يقبلون شيئاً قليلاً من ذكر الله، وحالهم خلاف ذلك، وهذا من أسرار تلك المغايرة بين الفريقين.(2)

الأمر الثاني: أن النظم القرآني جاء مع انشراح الصدر بصيغة المفرد في قوله ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ﴾ (الزمر: 22) أما مع قسوة القلب فقد جاء بصيغة الجمع في قوله ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ (الزمر: 22) فما السُّر في ذلك؟ لعل السرَّ في هذا أن المؤمنين وإن كثر عددهم، وتنوع جنسهم إلاَّ أنهم كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح(3)، فالواحد منهم يُمُثِّل الأمة والجماعة بما يحمل من همومهم وآلامهم، وبما يكنُّ في صدره لهم من الحب والوفاء، ومن هنا جاء الإفراد في حقهم، وهذه المعاني السامية تفتقد في جانب الكافرين لذا عُبر عنهم

---

(1) كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ من حديث النعمان بن بشير وفيه « ...ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »، رواه البخاري: 19/1، كتاب الإيمان، من حديث النعمان بن بشير .

(2) انظر: روح المعاني: 258/23 .

(3) وهو قول رسول الله ـ ﷺ ـ « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »، رواه البخاري: 77/7، كتاب الأدب، من حديث النعمان ابن بشير.

بالجمع.[1]

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآية بحكمه القاطع على هؤلاء الذين قست قلوبهم مبيناً ما هم فيه من التخبط والتيه في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ (الزمر: 22) فهم في حيرة واضحة لا تخفى على من تأملها، « وأي ضلال أعظم مِن ضلال مَن أعرض عن الله، ومَن كل السعادة في الإقبال عليه، وأي ضلال في مَن قسا قلبه عن ذكر ربه، وأقبل على كل ما يضره ».[2]

وقد فُصلت هذه الجملة عن التي قبلها؛ فبينهما شبه كمال الاتصال، وذلك أن الجملة الأولى ـ بما تضمنتْ ـ تثير سؤالاً لدى السامع، إذ كيف تقسو قلوبهم من ذكر الله، وهو الشفاء من كل داء ؟ فتأتي الجملة الثانية إجابة عن هذا السؤال، موضحة أن سبب ذلك ضلالهم المبين نتيجة الإعراض والقسوة .

وفي الإشارة إليهم باسم الإشارة البعيدة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ دلالة على بعد مقامات هؤلاء في الضلال حساً ومعنى، كما أن فيها تصويراً دقيقاً لمقدار إعراضهم عن ذكر الله، وعدم انتفاعهم به، بسبب تلك القسوة العظيمة التي رَنَتْ على قلوبهم .

وفي هذا الحرف ﴿ فِي ﴾ ـ بدلالته على الظرفية والوعاء ـ استعارة تبعية، فقد استُعيرت الظرفية ـ التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف ـ لانغماس هؤلاء الكفرة الذين قست قلوبهم عن ذكر الله، بجامع الإحاطة والاحتواء، ودُلَّ على هذه الاستعارة بحرف الجر (في) ـ بدلالته على الظرفية ـ وتكمن بلاغة الاستعارة في هذا السياق أن فيها بياناً لشدة تمكن الضلال بهم، وانغماسهم في حمأته، وإحاطته بهم إحاطة السوار بالمعصم.

ومن بديع بلاغة القرآن، وحسن نظمه أن جاء بحرف الجر (في) في تصويره لضلال

---

(1) انظر: روح المعاني: 258/23.

(2) تيسير الكريم الرحمن: 318/4.

أولئك الأقوام، فقد أوضح هذا الحرف . بما فيه من دلالة . عمقَ ذلك الضلال وشدته، كما بيّن أيضاً مدى ما هم فيه من تخبط وتيه وضلال، فتأمل إعجاز القرآن كيف سخر هذه الحروف الصماء، وجعلها ناطقة في كشف معانيه، وتحقيق أغراضه.

كما أن وصف الضلال بـ(المبين) بيان لمدى ذلك الضلال وعمقه، وظهوره جلياً لكل ذي بصيرة وإدراك، فهم في غواية وإعراض ظاهرين للعيان، ومع ذلك لا يحسون بهما ولا يشعرون، وصدق الله ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: 46).

والمتأمل لهاتين الاستعارتين التبعيتين اللتين وردتا في هذه الآية يجد أن الاستعارة الأولى جاءت بحرف الجر (على) مع صاحب الحق والنور، بخلاف الاستعارة الثانية، فقد جاءت بحرف الجر (في) مع صاحب الضلال، فما السرُّ في هذا ؟ وما دلالته في هذه الآية التي تُبين موقف الناس من القرآن؟ جاء صاحب الحق الذي شرح الله صدره للإسلام مُعَدَّى بالحرف (على) وذلك لـمَّا تمكن هذا الرجل الذي شرح الله صدره للإسلام على هذا النور، واستعلى عليه فقد ظهرت حجته، وقوي برهانه، فحينها يُبصر الحقائق، ويُدرك الأمور على حقيقتها، فقد تبددت أمام نوره الحجب؛ لأنه ينظر من علٍ، فقد أبصر نور الحق والهدى، فسار في هذا الطريق على بيِّنة وهدى، ولذا فقد علت مكانته، وسمت منزلته[1]، ومن هنا جاء ما يختص به مُعَدَّى بحرف الجر (على) . بدلالته على الاستعلاء . إشارة إلى هذه المعاني كلها، وتأكيداً .

أما أصحاب الضلال فقد جاء الحرف معهم مُعَدَّى بالحرف (في) وفي هذا إشارة إلى أنهم . بسبب قسوة قلوبهم، وشدة إعراضهم عن القرآن . منغمسون في ظلام دامس، لا يدرون أين يتوجهون، ولا أين يسيرون، فهم يتخبطون في ليل مظلم بهيم، ويتساقطون في مهاوي الردى والضلال، لا تعرف لهم وجهة، ولا تبصر لهم هدفاً، ولا غاية يسعون إليها في

(1) انظر: من بلاغة النظم القرآني: 367.

هذه الحياة[1]، ومن هنا جاء ما يختص بهؤلاء الحرف مُعَدَّى بـ(في) . بدلالته على الظرفية . إشارة إلى هذه المعاني كلها، ودلالة عليها، فتأمل بلاغة القرآن العظيم من خلال هذه الاستعارة في الحروف في بيانه أقسام الناس مع القرآن العظيم.

● ومن أنواع الاستعارات في حديث القرآن عن القرآن:

الاستعارة المكنية:

وهي التي حُذف فيها المشبه به، واكُتفي بذكر شيء من لوازمه، فهي . كما ذكر الخطيب: ((أن يُضمر التشبيه في النفس، فلا يُصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يُثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به))[2]، ومن شواهد هذه الاستعارة قوله . تعالى . ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد: 24).

في هذه الآية أمرٌ منه . سبحانه . بتدبر القرآن وتفهمه، والنهي عن الإعراض عنه، وقد بدأت الآية بالاستفهام الإنكاري التوبيخي الذي يكشف واقعهم مع القرآن، ويبين حالهم معه.[3]

ففي هذا الاستفهام . وهذا غرضه ومعناه . دلالة على ما هم فيه من الإعراض عن القرآن، وما وصل إليه إعراضهم وهجرهم له من ترك تدبره، والنظر في معانيه، فهذا هو حالهم وواقعهم مع القرآن، ولو أنهم أقبلوا عليه وتأملوه وتدبروه لأبصروا مافيه من المواعظ والزواجر، وما اشتمل عليه من الحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة، فلو تدبروا القرآن، وفعلوا

---

(1) انظر: المصدر السابق : 367.

(2) الإيضاح: 137/3.

(3) ذكر بعض المفسرين أن المراد بهذه الآية المنافقون (انظر: جامع البيان: 57/26)، ولكن الصحيح في هذا: أن كل من أعرض عن القرآن .كما يذكر ذلك الشنقيطي . وترك تدبره، والنظر في معانيه، والعمل بما فيه، فإنه معرض عن هذا القرآن، غير متدبر له، فيطوله الإنكار والتوبيخ الوارد في هذه الآية. (انظر: أضواء البيان: 429/7)، وقد ذكر كلاماً حسناً في تفسير الآية، وما يتعلق بتدبر القرآن، وما يترتب على هجره، والإعراض عنه، بترك تدبر.

ما أُمروا به لتغير حالهم، وتبدلت حياتهم، ولقادهم القرآن إلى كل خير، و لجنَّبهم كل شر، ولملأ قلوبهم يقيناً وإيماناً، ولدلَّهم إلى كل خير في الدنيا والآخرة، ولأعزهم بعد ذلة، ولأغناهم بعد فقر، ولجمعهم بعد فرقة وشتات.

وفي مجيء لفظة ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ بهذه الصيغة إشارة إلى أن المراد منهم صرف جميع همِّهم وهممهم إلى القرآن، وأن ينصرفوا إليه بقلوبهم، ليهتدوا بهديه، فقد دلت هذه الصيغة على شدة التدبر وقوته، وعلى مزيد من إمعان النظر فيه، والغوص في معانيه، والوقوف على حكمه وأسراره؛ ليفهموا مراد الله، وينتفعوا به.

كما أن في مجيء هذه اللفظة ﴿ يَتَدَبَّرُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً دلالة على أن المطلوب منهم تكرار هذا التدبر، وتجدد حدوثه في كل وقت وآن، فليس هو تدبراً عابراً، أو مرة في العمر، كلا بل هو تدبر دائم متجدد ليقفوا على أسرار القرآن، ويدركوا عجائبه، وليعملوا بما جاء فيه من الأوامر، وينزجروا عما فيه من النواهي والزواجر، فلا بد من تكرار التدبر، كيف لا وهو الغاية من نزول القرآن كما قال ـ تعالى ـ ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (ص: 29)، فلا عجب ـ إذن ـ أن تأتي لفظة (يتدبرون) بهذه الصيغة إشارة إلى هذه الغاية العظيمة، ودلالة عليها.

وبعد أن ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ حالهم وواقعهم مع القرآن، وما هم فيه من الإعراض عنه وترك تدبره وتأمله بيَّن سبب هذا الإعراض في قوله ﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ (محمد: 24)، و(أم) هنا للإضراب الانتقالي، انتقال من ذكر واقعهم مع القرآن إلى بيان سبب الإعراض عن القرآن، وترك تدبره[1]، والهمزة فيه للتقرير، وفي ذلك شهادة عليهم، وتسجيل بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها القرآن، ولا يخلص إليها شيء من معاني القرآن وأسراره، فضلاً عن أن تتدبره وتعمل به.

وفي تنكير هذه القلوب تهويل لحالها، وتفظيع لشأنها، وذلك بإبهام أمرها في القساوة

(1) انظر: التحرير والتنوير: 13/26.

والجهالة، فكأنه قيل: هي قلوب منكرة، لا يُعرف حالها، ولا يتبين كنهها، ولايُقادر قدرها في القساوة والإعراض[1]، فيكون في هذا التنكير مزيد تحقير لهم، ببيان عظم قسوة قلوبهم، وشدة إعراضها، وفي هذا دلالة على فرط جهالتها، وشدة نكرها، فهي لذلك قلوب مُنْكَرة مُبْهَمة .[2]

كما جاء تنكير لفظة ﴿ قُلُوبٍ ﴾ لتشمل هذه الأقفالُ قلوبَ هؤلاء الذين تركوا تدبر القرآن، ولتشمل ـ أيضاً ـ كل قلب هو على هذه الصفة من الإعراض عن القرآن، وترك تدبره.

فلو جاءت هذه اللفظة معرفة، وقيل: أم على القلوب أقفالها، لما دخلت قلوب غيرهم في هذه الجملة[3]، والقرآن نازل للناس جميعاً، خطاب لهم في كل زمان ومكان، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن هنا جاء تنكير لفظة (قلوب) إشارة إلى هذا المعنى.

والمتأمل لنظم هذه الآية يجد أن الأقفال جاءت مضافة إلى ضمير تلك القلوب في قوله ﴿ أَقْفَالُهَآ ﴾ فما سرُّ هذه الإضافة؟ جاءت الإضافة هنا مبينة عظم هذه الأقفال، وشدة غلظتها وقسوتها، فهي ليست أقفالاً كسائر الأقفال، وإنما هي أقفال خاصة تليق بقسوة هذه القلوب، التي أعرضت عن القرآن، وتركت تدبره، ففي هذه الإضافة تمييز لهذه الأقفال، وتخصيص لها، فليست هي الأقفال المعروفة، وإنما هي أقفال الكفر التي لا تنفتح أبداً.[4]

كما أن في هذه الإضافة إشارة إلى ملازمة الأقفال لهاتيك القلوب، واختصاص تلك

---

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 99/8.
(2) انظر: محاسن التأويل: 5387/15.
(3) انظر: التفسير القيم: 439.
(4) انظر: الكشاف: 536/3.

الأقفال ـ كذلك ـ بهذه القلوب، فهي لا تفارقها أبداً، ولا تنفك عنها[1]، وفي هذا دلالة على عظم هذه القلوب، وشدة قسوتها، أن خُصت بهذه الأقفال، ولازمتها، حيثما حلَّتْ وسارت طوال حياتها.

وتكمن بلاغة القرآن وإعجازه أن ذكر هذا المعنى بطريق الاستعارة المكنية، ففي قوله ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: 24)، استعارة مكنية تخيلية، فقد شُبهت قلوب هؤلاء بالأبواب والصناديق المغلقة، وحُذف المشبه به، وأُبقي شيء من لوازمه، وهي الأقفال، فهي مكنية لعدم التصريح بالمشبه به، وتخيلية لإضافة الأقفال إلى القلوب.

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة، وتظهر دلالاتها في حديث القرآن عن القرآن أن فيها إشارة إلى واقع هذه القلوب مع القرآن الكريم، وذلك أن القفل مع الأبواب كالطبع على القلوب، فقلوب هؤلاء بمنزلة الأبواب المغلقة المحكم إغلاقها، وإن لم يُرفع هذا القفل فلن يُتمكن من فتح هذا الباب، والوصول إلى ما وراءه، وكذلك هذه القلوب إن لم يُرفع عنها الطبع والختم فستظل على كفرها ونفاقها، وإعراضها عن القرآن، وترك تدبرها له، وأنى للإيمان والقرآن أن يدخلا هذه القلوب، وهذه حالتها؟![2]

والباب إذا كان مقفلاً فكما لا يدخل فيه شيء فكذلك لا يخرج منه شيء، فستظل هذه القلوب على كفرها ونفاقها، وإعراضها عن كتاب ربها، وترك تدبره، والعمل بما فيه؛ لأنها قلوب قد طُبع عليها وخُتم، فلا الإيمان والقرآن يدخلان هذه القلوب، ولا الشرك والإعراض عن القرآن يخرجان منها، فلا تسأل بعد هذا عن حال هذه القلوب، وكأن في هذا إشارة إلى أنهم يستمرون على هذا الحال ويظلون عليه إلى أن يقبض الله أرواحهم، وهم على شر حال من الإعراض عن القرآن، والهجر له، وترك تدبره وتأمله، وحسبك بهذا تحذيراً وتنفيراً من الإعراض عن القرآن، فإن من أعرض عن القرآن، وترك تدبره فسيكون هذا

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 114/26.

(2) انظر: التفسير القيم: 439.

جزاءه، وذلك مصيره، وهو الطبع على القلوب، فالختم في الدنيا، والعذاب الشديد في النار، فهذا جزاء من كفر بالقرآن، وأعرض عنه.

وقد جاءت هذه المعاني كلها، ودلت عليها الاستعارة المكنية، ومن هنا يتبين أثر هذه الاستعارة في حديث القرآن عن القرآن، فقد بيَّنتْ حال من أعرض عن القرآن، وترك تدبره، والواقع الذي يعيش فيه في هذه الحياة الدنيا، والجزاء والمصير الذي ينتظره في الآخرة.

● ومن أنواع الاستعارات في حديث القرآن عن القرآن:

الاستعارة التهكمية:

وهي الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، والوعد في مكان الوعيد؛ تهكماً من القائل بالمقول له، وسخرية به واستهزاء، فيكون اللفظ في هذه الاستعارة مستعملاً في ضد معناه ونقيضه، وذلك بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب، بواسطة التهكم.[1]

ومن الشواهد عليها في حديث القرآن عن القرآن قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ (الجاثية: 7 ـ 8).

يذكر ـ سبحانه ـ في هاتين الآيتين عاقبة كل من يسمع القرآن يُتلى عليه، ثم يصر مستكبراً عنها كفراً به، وإعراضاً، والمتأمل لهاتين الآيتين يجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بدأ بذكر جزائه وعاقبته، قبل أن يذكر فعله وعمله، فقد بدأت هاتان الآيتان بقوله ﴿ وَيْلٌ ﴾ وفي هذا تعجيل لمساءته، ومبادرة في إنذاره وتهديده، وبيان لما أعد الله له من العذاب الشديد في الآخرة.

ناهيك عما في بداية الآية بلفظة ﴿ وَيْلٌ ﴾ من الجزالة والقوة، كما أن البدء بها تجعل المخاطب بها والسامع لها متلهفاً متشوقاً لمعرفة هذا الشقي المحروم الذي أُعدَّ له هذا الويل، وتُوعد به، فيسعى جاهداً لاجتناب ذلك العمل، وترك تلك الصفة؛ حتى لا يلاقي هذا

(1) انظر: الإيضاح: 109/3.

المصير، ولا يناله هذا العذاب أو يطوله.

وفي تنكير لفظة ﴿ وَيۡلٌ ﴾ دلالة على عظم العذاب، وهوله وشدته، وعند النظر في معنى الويل يتبين هول هذا العذاب وشدته، فقد ذكر المفسرون أن الويل وادٍ في جهنم، يسيل من صديد أهل النار ـ والعياذ بالله ـ(1)، وقيل: الويل ـ في كلام العرب ـ المصائب والأحزان والشدائد، فيكون المعنى: أن هذا المعرض عن القرآن مُتوعد بالمصائب والأحزان التي تناله في الدنيا والآخرة بسبب إعراضه، وتكبره عن سماع القرآن.(2)

ففي لفظة ﴿ وَيۡلٌ ﴾ إيحاء بهذا العذاب، فالويل كل الويل، والعذاب كل العذاب بأنواعه وأقسامه لمن أعرض عن القرآن، واستكبر عن سماعه، ولم يُؤمن به، ويُقبل عليه.(3)

ولا غرو أن يكون هذا العذاب شديداً موجعاً، فإن الجزاء من جنس العمل، فلما كان جرمه عظيماً شنيعاً كان جزاؤه عظيماً شنيعاً، كما أن عظم هذا العذاب وشدته دلالة على عظم القرآن، وجلالة قدره، وعلو شأنه، فلما أعرض عن أمر عظيم، وأصرَّ واستكبر عن القرآن كان عذابه عظيماً شديداً دلالة على عظم الأمر الذي أعرض عنه، وكفر به.

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ لمن أُعد هذا الويل، ومن الذي سيناله في قوله ﴿ وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ (الجاثية: 7) والأفاك هو الكذاب كثير الكذب، والإفك أسوأ الكذب وأقبحه، وفي مجيء هذه الصفة بهذه الصيغة دلالة على شدة توغله في الكذب، وكثرة وقوعه فيه، وصدوره منه.

وقد أكد هذا المعنى وأظهره ذكرُ وصف آخر لهذا المعرض عن القرآن فهو ـ أيضاً ـ أثيم فهو ـ كما تدل عليه صيغة المبالغة ـ كثير اقتراف الآثام والخطايا، فما أكثر ما يُقدم على ارتكابها دون رقيب ولا حسيب، بلا مبالاة أو خوف من الله ووجل، ولا حياء من الناس،

---

(1) انظر: جامع البيان: 157/4.

(2) انظر: المحرر الوجيز: 81/5.

(3) انظر: تفسير المراغي: 144/25 .

ولا غرو من كان هذا نعته وتلك صفته أن يكون هذا حاله مع القرآن إعراضاً عنه واستكباراً.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حاله وقت تلاوة القرآن عليه في قوله ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الجاثية: 8) وقد جاء نظم الآية كلها مشيراً إلى بيان عظم هذا العمل وشناعته الذي أقدم عليه هذا الأفاك الأثيم حين أعرض عن القرآن، واستكبر عن سماعه، يتجلى هذا الأمر من خلال ما يلي:

أولاً: في التعبير عن القرآن بقوله ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فلم يقل القرآن، فهو وإن كان المعنى واحداً إلاَّ أن في هذا التعبير مزيد تشنيع عليه، وتسفيهاً له، وبيان ذلك أن القرآن الذي أعرض عنه واستكبر عن سماعه آيات بينات واضحات، ومن شأن الآية أن تكون واضحة المعالم، بينة الدلائل، فإذا كفر بها وأعرض عنها وهذا حالها تبين حال هذا المعرض، وما هو فيه من الكبر والغفلة عن هذه الآيات، وما جاء فيها.

كما في مجيء هذه اللفظة ﴿ ءَايَٰتِ ﴾ جمعاً دلالة على أن كفره وإعراضه قد تجاوز حده، فقد أوغل في الكفر بها، وأفرط في الإعراض عنها، فلم يكن كفره مقصوراً على آية أو آيتين، بل تجاوز ذلك بكثير، فقد كفر بآيات كثر.

يزيد هذا الأمر جرماً وشناعة أن هذه الآيات التي أعرض عنها هي آيات الله، يدل على هذا المعنى إضافتها إليه ـ سبحانه ـ في قوله ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ فقد أكسبت الإضافة هذه الآيات تفخيماً لها، وتعظيماً لشأنها، فمن حق هذه الآيات ـ وهذا شأنها، وتلك مكانتها ـ الإيمان بها، والإقبال عليها، لا الإعراض عنها والاستكبار.

ثانياً: أن هذا الإعراض والاستكبار عن القرآن في الوقت الذي كان يُؤمل منه الإيمان به والإقبال عليه، ولكن حسبه من هذا السماع أن قامت عليه الحجة، وبلغته البينة، فليس له عذر في هذا، ولا تثبت له محجة، ولن يسعه الجحود والإنكار.

كما أن في قوله ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ إشارة إلى أنه هو المراد من هذه التلاوة، فقد تُليت

عليه، ومن أجله هو لعله يتذكر، أو يقبل عليها، ويؤمن بها، فما أحراه ـ والحالة هذه ـ بالإصغاء لها، والإقبال عليها، لا الكفر بها، والإعراض عنها، ولكن ـ ومع هذا كله ـ فما زادته هذه التلاوة إلاَّ استكباراً وعناداً.

كما أن مجيء لفظتي: (تُتلى، ويسمع) فعلين مضارعين إشارة إلى تكرر هذه التلاوة عليه، وتكرر سماعه لها، وتجدد حدوثهما، فقد تتابعت عليه هذه التلاوة، وتوالى سماعه لها، إلاَّ أنه ـ مع هذا كله ـ ثابت على موقفه هذا لا يحول عنه ولا يزول.

ثالثاً: بناء الفعل ﴿ تُتْلَىٰ ﴾ للمجهول، ففي هذا إشارة إلى أن هذه التلاوة قد تتابعت عليه من كل حدب وصوب، وأُلقيت على مسمعه، فقد تعددت مصادر هذه التلاوة، وتنوعت، ومع ذلك كان يقابل هذا كله بالإعراض والاستكبار، وفي هذا دلالة على أن كفره بهذه الآيات وإعراضه عنها لحقد في نفسه على القرآن، ولما جاء فيه، واشتمل عليه، ولم يكن سبب إعراضه واستكباره من جاء بالقرآن، أو من تلا عليه هذه الآيات، وألقاها على مسمعه، كلا فهولم يلتفت أبداً إلى من قام بهذه التلاوة، بل توجه إعراضه وسخريته إلى القرآن، لذات القرآن، ولِمَا جاء فيه، وذلك هو الضلال المبين، فلا غرو أن يكون ـ وهذا حاله ـ أفاكاً أثيماً، وأن يُتوعد بالويل، وأن يُبشر بالعذاب الأليم.

وللعلماء وقفة مع حرف العطف (ثم) في قوله ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾ (الجاثية: 8) مبينين دلالته في هذا السياق، وإيحاءه في هذا المقام الذي ورد فيه، فكان مما ذكروا أن في مجيء هذا الحرف هنا إشارة إلى ما توافر لهذا المعرض عن القرآن من الأمور الموجبة للإقبال على القرآن، والإيمان به، إلاَّ أنه مع هذا كله أعرض عنه واستكبر عن سماعه، فقد أفاد هذا الحرف معنى التعجب منه، والإنكار عليه من موقفه من القرآن، كما أن فيه معنى استبعاد هذا الإصرار، وذلك الاستكبار، بل واستهجان حدوثه، واستغراب وقوعه بعد سماع الآيات، وتلاوتها عليه، التي من حقها واللائق بها أن تُذعن لها القلوب، وأن تُقبل عليها النفوس، وأن تخضع لها الرقاب وتتطامن، فالعجب كل العجب أن يكون هذا موقفه من القرآن بعد سماعه

لها، وتلاوتها عليه.[1]

وبعد أن ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ شأن هذه الآيات، وعِظَمها، وعلو قدرها ومنزلتها في قوله ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ، وبعد أن بيَّن ما توافر لهذا المعرض عنها من الأمور الموجبة للإقبال عليها، والإيمان بها في قوله ﴿ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ﴾ (الجاثية: 8) بعد هذا كله بيَّن موقفه من القرآن في قوله ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ (الجاثية: 8) وفي مجيء لفظة ﴿ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ حالاً بيان لهيئة فعله وقت الإصرار، وأنه مقيد بهذه الهيئة المقيتة .

كما دلَّ على هذا المعنى، وأشار إليه صياغة هذه اللفظة ﴿ مُسۡتَكۡبِرٗا ﴾ فقد دلت صياغتها على شدة هذا الاستكبار وعظمته، فإن في زيادة مبنى هذه اللفظة دلالة على زيادة معناها، وفي هذا مزيد تشنيع عليه، وتوبيخ له من موقفه هذا، وهذا أبلغ ذماً له، ولؤماً من قوله (متكبراً).[2]

ولما كان من المحال والمستبعد أن يُعرض عن هذه الآيات، ويُكفر بها، ويُستكبر عنها بعدما أُلقيت على مسمعه، وتُليت عليه، لما كان هذا الأمر غريباً كل الغرابة، وذلك أن سماع هذه الآيات، سبب في الإقبال عليها، والإيمان بها، فلما كانت هذه حالته، وهذا موقفه من هذه التلاوة جُعل كأنه لم يسمع هذه الآيات، وأنها ما تُليت عليه أصلاً، فقد شُبهت حاله ـ لعدم انتفاعه من هذه الآيات ـ بحال من لا يسمع؛ لأن هذه التلاوة لم تُزكِّ قلبه، ولم تُطَهِّر نفسه من أوضارها، وأمراضها، بل زادته ـ والعياذ بالله ـ عتواً ونفوراً.[3]

ولا يخفى ما تضمنه التشبيه من دلالة على عظم القرآن، وجلالة قدره، وبيان أثره وقوته، وذلك أن كل من سمعه، وأصغى إليه لا يسعه إلاَّ الإيمان به، والإقبال عليه، فإن

---

(1) انظر: الكشاف: 509/3، و: التفسير الكبير: 362/27، و: إرشاد العقل السليم: 69/8.

(2) انظر: حاشية القونوي: 163/6 .

(3) انظر: تيسير الكريم الرحمن: 476/4.

انتفى الإيمان، والانتفاع منهم فهم الذين لم يلقوا سمعهم لها، ولم يلتفتوا إليها، وليس سبب عدم الإيمان بها، والانتفاع منها لأمر كامن في القرآن، وأما هذا المعرض فلولا إصراره واستكباره لانتفع بالقرآن وارتفع به(1)، ولكن الله يهدي من يشاء، ويفعل ما يريد.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآية آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يُنذره بالعذاب الأليم الذي ينتظره في الآخرة جزاء إعراضه عن هذه الآيات، واستكباره عنها في قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الجاثية: 8) بيد أن الآية سلكت مسلكاً عجيباً، فقد ذكرتْ المعنى وأدته من خلال الاستعارة التهكمية في قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ ﴾ ، وذلك أن البشارة هي الإخبار بما يسر المبشَّر ويسعده، فكيف يُسر ويسعد بهذا العذاب الأليم الموجع الذي سيقض مضجعه، ويقلق باله.

وفي هذه الاستعارة تهكم بذلك المعرض عن القرآن، الذي استكبر وكفر به، كما في هذه الاستعارة التهكمية حط من شأن ذلك المعرض، فهو جدير بهذه السخرية، وبذلك التهكم والاستهزاء، فكأن في هذه الاستعارة التهكمية إشارة إلى موقفه من القرآن، فلما كان يُصِرُّ على استكباره عن القرآن، ويترفع عنه، عاقبه ـ سبحانه ـ بنقيض تلك الصفة التي كان عليها في الدنيا، فإن الجزاء من جنس العمل، فلما استكبر عن هذه الآيات في الدنيا عاقبه ـ سبحانه ـ بالمذلة والهوان والصَّغَار في الآخرة، تهكماً به وسخرية جزاء وفاقاً.

ولم يقف الأمر عند حد التهكم به والسخرية بل جاء النظم القرآني مبيناً شدة هذا العذاب و قوته، وذلك بتنكير لفظة ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ ففي تنكيرها إشارة إلى عظم العذاب وهوله وفظاعته، فهو عذاب لا يُحتمل ولا يُطاق، وقد أكد هذا المعنى، ودلَّ عليه أن وُصف بلفظة (أليم) ففي هذا الوصف دلالة على أنه عذاب موجع، لا طاقة له به، ولا صبر له عليه، وعظم هذا الجزاء والعقاب دلالة على عظم ما اقترف وأقدم عليه من الكفر بالقرآن، والإعراض عنه، فكان هذا جزاءه، وذلك مصيره، وما ربك بظلام للعبيد.

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 332/25.

كما أن في هذه الاستعارة التهكمية دلالة على شدة المقت والغضب على المتهكم به، كما أن فيها دلالة على هوانه، وسقوط منزلته، ولعل هذا هو سرُّ ورود هذه الاستعارة في هذا الموضع، بل وفي القرآن الكريم كله، وذلك أن المتأمل لهذا النوع من الاستعارة في القرآن الكريم . على كثرة ورودها فيه . يجد أنها ((كثيرة التداول في كتاب الله، خاصة عند عروض ذكر الكفار، وأهل الشرك، والنفاق، وغير ذلك من الآيات الوعيدية، والخطابات الزجرية، الدالة على مزيد الغضب، وبالغ الانتقام)).(1)

وهكذا ومن خلال ما تقدم من أسرار هذه الاستعارة التهكمية تتجلى بلاغة القرآن، فقد جاءت مبينة ما ينتظر كل مكذب بالقرآن، معرض عنه مستكبر بأن له عذاباً أليماً، فقد بينت هذا المعنى بأسلوب تهكمي، ساخر لاذع، يليق بهذا المعرض، ويتوافق مع موقفه من القرآن، وما جاء فيه.

---

(1) الطراز: 247/1.

المبحث الثالث: الكناية والتعريض

أولاً: الكناية:

وهي أن تتكلم بشيء وتريد غيره، يُقال: كنَّى عن الأمر بغيره، يُكني كناية، إذا تكلم بغيره مما يُستدل عليه[1]، مأخوذة من الستر والتغطية، يُقال: كنيتُ الشيء إذا سترته، وسُميت بهذا الاسم؛ لأنها تستر معنى، وتُظهر غيره[2]، ومنه الكنية؛ وذلك أن فيها ستراً للاسم، وإظهاراً لشيء آخر، وهي الكنية.[3]

ومن هذه المعاني اللغوية يتضح معناها في اصطلاح أهل البلاغة والبيان، وقد عرفها عبدالقاهر الجرجاني بقوله: ﴿ الكناية: أن يُريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به، ويجعله دليلاً عليه ﴾.[4] ومن ثم عُرِّفتْ الكناية بأنها: لفظ أُطلق وأُريد به لازم معناه، مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي.[5]

ولأسلوب الكناية أثره الخاص الذي يُميزه عن غيره من أساليب البيان، وتكمن بلاغة الكناية في كونها تُعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، وتذكر القضية، وفي طياتها برهانها الشاهد عليها، فهي تمتاز بالإقناع والإمتاع، ومتى ما جاء المعنى مصحوباً بدليله كان أشد أثراً وتأثيراً، وأقوى إقناعاً، وأوقع في النفس، وأعلق بالفؤاد، وآكد للمعنى، وأشد تأثيراً في النفوس.[6]

---

(1) انظر: لسان العرب: مادة: كني.

(2) انظر: الطراز: 366/1.

(3) انظر: الإكسير في علم التفسير : 118.

(4) دلائل الإعجاز: 66.

(5) انظر: الإيضاح: 156/3.

(6) انظر: مقدمة كتاب: الكناية والتعريض: 44، لأبي منصور الثعالبي.

ولذلك فقد ((أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح))(1)، كما ذكر ذلك عبدالقاهر الجرجاني، ثم أخذ في بيان وجه حسنها، وبيان أثرها، وشدة تأثيرها قائلاً: ((ليس المعنى إذا قلنا: إن الكناية أبلغ من التصريح أنك حين كنيتَ عن المعنى زدته في ذاته، بل المعنى أنك زدتَ في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد، فليست المزية في قولهم: (جم الرماد) أنه أدل على قرى أكثر، بل إنك أثبت له القِرى الكثيرة من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجاباً هو أشد، وادَّعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق)).(2)

ولذا فقد كانت الكناية . ولا زالت . الميدان الفسيح الذي يتسابق فيه البلغاء، وتتفاوت فيه أقدارهم، وتتباين فيه منازلهم، إذ لا يصل إليها إلاَّ ((من لطُف طبعه، وصفت قريحته))(3)، ولا عجب في هذا فهي ((وادٍ من أودية البلاغة، ومقتل من مقاتل البيان العربي... وطريق جميل من طرق التعبير الفني ... ووسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع، ولها أثر كبير في تحسين الأسلوب، وتزين الفكرة، فهي من العبارة الأدبية كالدرة اليتيمة في العقد، وكالزهرة الجميلة في الروضة الفيحاء، تضفي عليها جمالاً أخاذاً، وسحراً حلالاً، وتكسوها رونقاً وبهاءً، فتسترعي الانتباه، وتسترق الأسماع، وتبهر الألباب، وتذوب النفس تأثراً بجمالها، وتتراقص العواطف فيها لعناقها، وتتحرك الأحاسيس مفتونة بحسنها وجمالها)).(4)

أما الكناية في القرآن فإنها ((فوق طاقة بني الإنسان؛ لِما فيها من روعة التعبير، وجمال التصوير، وألوان الأدب والتهذيب، ما لا يستقل به بيان، ولا يدركه إلاَّ من تذوق

(1) دلائل الإعجاز:70، وليس هذا الإجماع على الإطلاق، فالكناية أبلغ في المقامات التي تستدعيها وتتطلبها، وما عدا ذلك فلا، إذ الكناية كسائر الأساليب البلاغية التي لا تشرف لذاتها، وإنما تحسُن وتبلغ الغاية على حسب تطلب المقام لها، فالبلاغة دائماً في مراعاة الكلام لمقتضى الحال، بأي أسلوب كان.

(2) المصدر السابق: 71.

(3) البلاغة الواضحة: 131، تأليف علي الجارم و مصطفى أمين.

(4) الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم: 87،د.محمود السيد شيخون.

حلاوة القرآن))[1]، فلا تجد معنى من المعاني في القرآن جاء بهذا الأسلوب الكنائي إلاَّ وفيه نكت بيانية، وأسرار بلاغية، ما كانت لتكون لو جاء الأسلوب على حقيقته، كما سيتضح أثر هذا الأسلوب في آيات حديث القرآن عن القرآن، من خلال بعض الآيات التي سأذكرها للنظر في بلاغة هذا الأسلوب، وأسراره البيانية.

فمن شواهد الكناية في حديث القرآن عن القرآن قوله ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ ﴾ (البقرة: 174).

يذكر ـ سبحانه ـ في هذه الآية أحوال علماء اليهود وأحبارهم مع القرآن الكريم، مبيناً موقفهم منه، من كتمانهم له، وإخفاء ما جاء فيه من البينات والهدى، وذلك أنهم كتموا أمر محمد ﷺ ونبوته، وما يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة، كما أخفوا كثيراً من الآيات والأحكام التي أنزل الله في كتابه، كما بيَّن ـ سبحانه ـ أن كتمانهم ما أنزل الله كان مقابل رِشوة يأخذونها، وفي هذا مزيد ذم لهم، واحتقار لهم.[2]

وقد جاء الخبر مؤكداً بـ(إن) وذلك تقرير لمضمون ذلك الخبر، وتأكيد له، فقد أثبت التوكيد الفعل المخزي المنسوب إليهم، كما أن في تأكيده جزماً قاطعاً بالعذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة، جزاء كتمانهم هذه الآيات، وأخذهم الرشوة مقابل هذا الكتمان.

وقد جاء تعريفهم بطريق الموصول؛ وذلك لإظهار ما تضمنته صلة الموصول، وإبرازه، وهو الكتمان، كما أنهم ـ لكثرة صدور هذا الفعل منهم ـ أصبحوا مشهورين بهذا الوصف،

---

(1) المصدر السابق: 101.

(2) انظر: جامع البيان: 89/2، وهذه الآية وإن كانت نازلة في علماء أحبار اليهود إلاَّ أنها تتناول كل من كتم شيئاً من الحق مختاراً، وأخذ على ذلك الكتمان حظاً من الدنيا وحطامها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (انظر: المحرر الوجيز: 241/1، و: فتح القدير: 171/1).

ومعروفين به، فجاء ذكرهم هنا بطريق الموصول دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، وفي هذا تسجيل عليهم بهذا الفعل، وإثباته عليهم، لكثرة صدوره منهم.

يدل على هذا ويؤكده مجيء لفظة (يكتمون) فعلاً مضارعاً، ففي هذه الصيغة دلالة على تجدد هذا الفعل منهم، وتكرر حدوثه، فهذا دأبهم مع ما أنزل الله، فهم دائماً وأبداً يكتمون الآيات ويُخفونها، وفي مجيء هذه اللفظة بهذه الصيغة مزيد تشنيع عليهم، وتسفيه لهم ـ أيضاً ـ من صدور هذا الفعل المشين منهم، واستهجان حدوثه منهم.

كما أن في الموصول إيماء إلى سبب الخبر وعلته، وإلى العذاب وسببه، فقد استحقوا العذاب العظيم بسبب كتمانهم للقرآن، وما أنزل الله من البينات والهدى .(1)

وفي ذكر القرآن وتعريفه بالموصول في هذا السياق في قوله ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ مزيد تشنيع عليهم في هذا العمل، وإنكار لحدوثه وصدوره منهم، وذلك أن الذي كتموه هو ما أنزل الله الذي أخذ منهم العهود والمواثيق ببيانه، وعدم كتمانه كما قال ـ تعالى ـ:﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (آل عمران: 187).

كما أن إسناد الإنزال إلى الله دلالة على عظم القرآن، ومكانته، وأنه ما نزل إلاَّ لإظهاره للناس وبيانه، فإذا كانت هذه مكانة القرآن، وهذا الغرض من إنزاله فكيف يليق بهم كتمانه، وطيّ ما جاء فيه، وإخفاؤه عن العامة، فيكون في هذا مزيد تشنيع عليهم هذا الفعل، وتهجينه منهم، وبيان فظاعته.

ولما أخذوا عن هذا الكتمان شيئاً من حطام الدنيا أُطلق على الفعل الصادر منهم شراء في قوله ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ (البقرة: 174) فقد أشبه هذا العمل البيع والشراء؛

(1) انظر: البحر المحيط: 122/2.

وذلك لاشتماله على عوض ومعوض عنه.(1)

والثمن القليل: هو عرض الحياة الدنيا كلها من الأموال والمناصب والتحف والهدايا والرشوة بأنواعها التي كانوا يأخذونها مقابل كتمانهم لما أنزل الله من البينات والهدى.

وفي وصفه بأنه ثمن قليل دلالته وإيحاؤه في هذا السياق، فإن في تنكير لفظة ﴿ ثَمَنًا ﴾دلالة على حقارته ومهانته، وقد أظهر معنى هذا التنكير وغرضه وصفه بالقلة، فقد وُصف بالقلة إما لأنه في ذاته قليل حقير، أو أنه قليل لانقضائه، ونفاده، ولانقطاع مدته، وسوء عاقبته، وذلك أن كل ما يُؤخذ عوضاً عن الحق فهو قليل، وذلك بالنظر إلى ما ينالهم من الحرمان والشقاء والضلال في الدارين.(2)

ولا يخفى أن في تسمية هذا الفعل شراء مزيد تشنيع عليهم، وتحقيراً لهم، وازدراء بهم وبعقولهم التي أقدمت على هذا الفعل المشين، وفرطت بما أنزل الله مقابل الثمن الحقير المهين، وباعته بيع السماح.

ثم بيَّن . سبحانه . مصيرهم وما ينتظرهم من العذاب والنكال في الآخرة في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 174)، وفي الإشارة إليهم دلالة على وضوح أمرهم، واشتهارهم بهذا الصنيع، وفي هذا تجلية لأمرهم، وإيضاح له حتى لا يخفى على الناس، وفيه تشهير بهم، ووصمهم بهذا العمل، وذكره على رؤوس الخلائق.(3)

والأصل في اسم الإشارة واستعمالاته أن يُشار به إلى ذات مشاهدة حاضرة، ماثلة أمام العيان، شاخصة أمام الأبصار إلاَّ أنه قد يخرج عن هذا الأصل، فيُشار به إلى أمر حاضر في الذهن بعد أن يُذكر شيء من أوصافه وأحواله، فيكون في هذا إنزال لهذا المشار منزلة الحاضر المشاهد في ذهن المتكلم والمخاطب، وذلك أن في ذكر أوصاف الشيء

---

(1) انظر: إرشاد العقل السليم: 66/1.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن: 23/2، و انظر: تفسير المنار: 103/2.

(3) انظر: التحرير والتنوير: 132/2.

وأحواله ما يجعله حاضراً ماثلاً أمام الذهن، ومن هنا صحت الإشارة إليهم.[1]

كما أن في هذه الإشارة دلالة على أن ما يُذكر بعدها مترتب على ما قبلها، ومتسبب عنه[2]، وأنه جزاء لما اتصفوا به، وما صدر منهم من الأفعال، وكذلك الأمر هنا فهؤلاء يأكلون في بطونهم النار بسبب كتمانهم لآيات الله، وأخذهم على هذا الكتمان الرشوة، والعرض الحقير، من هذه الدنيا وحطامها.

وفي الإشارة إليهم بالأداة البعيدة دلالة على بعدهم عن رحمة الله، ومغفرته لهم، وإشارة إلى إيغالهم في هذا الكتمان، وتوغلهم فيه.

وفي قوله ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ (البقرة: 174) عدة لطائف بلاغية، ونكت بيانية، ومنها:

أولاً: أن الله . سبحانه وتعالى . عبَّر عن انتفاع أولئك الأقوام الذين يكتمون ما أنزل الله بما يأتيهم من الأموال والرشوة بالأكل، فما سرُّ التعبير عنه بالأكل مع تعدد أوجه الانتفاع بها؟ جاء هذا التعبير؛ لكون الأكل من أعظم المنافع التي تُصرف فيه الأموال، وتُبذل، فجاء التعبير بالأكل هنا دلالة على هذا المعنى.[3]

ثانياً: يدل على هذا المعنى ويؤكده قوله ﴿ فِي بُطُونِهِمْ ﴾، ومعلوم أن الأكل لا يكون إلاَّ في البطن، **وهذه هي اللطيفة الثانية،** فما سرُّ ذكر البطون هنا في هذا المقام؟ قيل: إن سبب ذكر البطون هنا لرفع توهم المجاز، إذ يُقال: أكل فلان ماله إذا ضيَّعه وأهدره، وإن لم يأكله، ففي ذكر البطون هنا إشارة إلى حقيقة معنى الأكل، ومنع تجوزه، إذ قد يُستخدم الأكل مجازاً.[4]

بيد أن السرَّ الكامن في ذكر البطون هنا هو ذمهم، والتنقص منهم، والحط من

(1) انظر: المصدر السابق: 241/1.
(2) انظر: المصدر السابق: 123/2.
(3) انظر: البحر المحيط: 667/1.
(4) انظر: المحرر الوجيز: 241/1.

شأنهم، في كونهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له ولا شأن، كما أن فيه دلالة على شدة جشعهم بطاعتهم لبطونهم، وقد كان يكفيهم في هذا لقيمات تُقيم أصلابهم وأودهم(1) فيكون في هذا التعبير مزيد تشنيع عليهم، وتثريب؛ لإقدامهم على هذا الجرم العظيم، من أجل هذا الدافع الحقير المهين الذي أبان عن شدة شرههم، وانسياقهم خلف بطونهم .

ثالثاً: المتأمل لهذه الآية وبيانها يجد أن الله . سبحانه وتعالى . جعل هذا المأكول ناراً، فما سرُّ هذا التعبير؟ وما دلالته في هذا السياق؟ في هذا التعبير مجاز مرسل بعلاقة المسببية، فقد أطلق المسبب وأريد به السبب(2)، وذلك أن المأكول هو الرشوة التي يأخذونها، بسبب كتمانهم ما أنزل الله، بيد أن النظم القرآني لم يذكر هذا المعنى، بل ذكر ما يتسبب على أخذ هذه الرشوة وأكلها، وهي النار، وذلك أن معنى الآية: أن الذي يأكلونه يُعذبون به أي بسببه، فكأنهم إنما يأكلون النار، وذلك أنه هو الذي أفضى بهم إلى النار.(3)

وقيل: إن علاقة هذا المجاز: اعتبار ما سيكون(4)؛ وذلك لكون هذا المأكول يؤول إلى نار يُحرقون بها ويُعذبون، وأياً ما كانت علاقة هذا المجاز إلاَّ أن في هذا التعبير تنفيراً من هذا العمل، الذي يؤول بصاحبه إلى شرِّ مآل ومصير، كما أن فيه تهديداً شديداً ووعيداً لهؤلاء على جرم ما أقدموا عليه بالنار التي تُحرقهم، وتأكل أجسادهم جزاء ما أكلوا بكتمانهم ما أنزل الله، وإخفاء ما جاء فيها.

ثم ذكر . سبحانه . مزيداً من عذابهم وآلامهم في الآخرة في قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 174) وليس المراد من قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (البقرة: 174) نفي أصل الكلام عنهم؛ وذلك لورود آيات في

(1) انظر: البحر المحيط: 667/1.

(2) انظر: حاشية الكازروني: 211/1.

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم: 220/1.

(4) انظر: المحرر الوجيز: 241/1.

القرآن تدل على أنه ـ سبحانه ـ يكلم الكافرين يوم القيامة، ومن ذلك قوله ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون: 108) [1]، إذن فقد أُريد من هذا اللفظ ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ﴾لازم معناه، وليس معناه الحقيقي، وهو مطلق الكلام .

فعدم تكليمه ـ سبحانه ـ لهم يوم القيامة كناية عن شدة غضبه عليهم، وإعراضه عنهم، يدل على هذا المعنى الكنائي قول العرب: فلان لا يكلم فلاناً، يريدون بذلك بيان شدة غضبه عليه[2]، وذلك أن من يغضب على شخص يصرمه، ويقطع محادثته، والكلام معه، دلالة على شدة بغضه له، ومقته إياه[3]، لأن في التكلم ـ ولو كان بشرٍّ ـ تأنيساً والتفاتاً إلى المكلَّم، واعترافاً به وبوجوده[4]، وقد جرت عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه، ولا يكلمونه ولا يلتفتون إليه؛ وذلك لانحطاط قدره، ودناءة منزلته لديهم، وعظم جرمه وشناعة ما ارتكبه، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث، ويتوجهون إليه بالملاطفة والبشاشة والبشر[5]، والله سبحانه أعلم بمراده.[6]

وتكمن بلاغة الكناية في هذه الآية، وفي هذا السياق أن فيها دلالة على عظم الجرم الذي أقدم عليه هؤلاء الذين كتموا ما أنزل الله، فلما كان جرمهم عظيماً استحقوا هذا الجزاء العظيم، وأي عذاب أشد من إعراض الله عنهم، وتركه مخاطبتهم، والحديث معهم في ذلك اليوم العصيب الذي هم فيه أحوج ما يكونون إلى رحمته ولطفه.

(1) انظر: المحرر الوجيز: 241/1، و: حاشية زادة: 482/1.

(2) انظر: معاني القرآن وإعرابه: 245/1.

(3) انظر: الكشاف: 329/1.

(4) انظر: البحر المحيط: 667/1.

(5) انظر: التفسير الكبير: 27/5؛: المحرر الوجيز: 241/1؛: تفسير المراغي: 51/2.

(6) ومما جاء في تفسير هذه الآية ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ﴾ أن الكلام على حقيقته، والمراد به: أن الله لا يكلمهم بما يحبون ويشتهون، وأما ما يسوؤهم ويكرهونه فإنه يكلمهم به (انظر: جامع البيان: 90/2)، وقيل: لا يكلمهم أي لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، وقيل: بل معناه: إن الله لا يسمع كلامهم، لأن أهل الجنة وحدهم هم الذين يسمع كلامهم، ويسمعون كلامه . (انظر: معاني القرآن وإعرابه: 245/1).

يدل على هذا المعنى ويؤكده أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قدم في هذه الآية عدم تكليمه إياهم، وتزكيته لهم على العذاب، فدلَّ هذا التقديم أن إهانة الله لهم بعدم تكليمهم أشد عليهم وأشق على نفوسهم من العذاب الأليم، وذلك أن الإهانة أشق على النفس، ويصعب على المرء تقبلها وتحملها.(1)

كما أن في هذه الكناية إشارة إلى انحطاط قدرهم ومنزلتهم، فلا كرامة لهم ولا شأن، فلا يُلتفت إليهم يوم القيامة، ولا يُعتد بوجودهم، فهم والعدم سواء، جزاء ما اقترفوه، وأقدموا عليه.

وقد جاءت الكناية مشيرة إلى هذه المعاني كلها، ودالة عليها، ومن هنا تتجلى بلاغة الكناية وأثرها في هذا المقام من خلال ذكر موقف من يكتم القرآن أو يحرفه، وذكر جزائه،وما أعد الله له من العذاب والنكال في الآخرة.

ولم يقف عذاب هؤلاء عند هذا ـ وإنه لكافٍ ـ بل إنه مع ذلك (لا يزكيهم) فلا يُطهرهم من دنس ذنوبهم، وآثار كفرهم(2)، ولا يُطهرهم ـ كذلك ـ من موجبات العذاب وأسبابها(3)، ومن كان هذا حاله وشأنه يوم القيامة كان جديراً ألاَّ يكلمه ـ سبحانه ـ، وألاَّ يُلتفت إليه، وأن يغضب عليه أشد الغضب والمقت، ومن هنا بيَّن ـ سبحانه ـ أن لهم ـ مع كل ما تقدم ـ عذاباً أليماً.

وفي تقديم الجار والمجرور (لهم) على ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ دلالة على اختصاص هؤلاء بهذا العذاب، واستحقاقهم إياه، فقد استوجبوا على أنفسهم العذاب بما ارتكبوا من الآثام، وبما أجرموا في حق هذه الآيات بسبب كتمانها، وإخفاء ما جاء فيها.

وفي تنكير لفظة ﴿ عَذَابٌ ﴾ دلالة على فظاعة هذا العذاب وشدته، وأنه لا طاقة لهم به، ولا بتحمل الصبر عليه، وفي تعظيم العذاب دلالة على عظم جرمهم، وشناعة صنيعهم،

(1) انظر: التفسير الكبير: 27/5.
(2) انظر: جامع البيان: 90/2.
(3) انظر: المحرر الوجيز: 241/1.

كما أن فيه دلالة من طرف خفي على عظم القرآن، وعلو منزلته، وجلالة قدره، فالجزاء من جنس العمل، فلما كتموا أمراً عظيماً أنزله الله من أجل إظهاره، وبيانه، عاقبهم ـ سبحانه ـ بهذا العذاب العظيم جزاء وفاقاً، دلَّ على عظم العذاب وشدته، وصفه بلفظة ﴿ أَلِيمٌ ﴾ فهو عذاب موجع، متمكن منهم، يشعرون بشدته ووجعه في كل موضع من جسدهم .

● وفي موضع آخر ومع حديث القرآن عن القرآن يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ موقف كفار قريش من القرآن، وممن جاءهم بالقرآن، وتلاه عليهم مبيناً ما في قلوبهم نحوه من الحقد والغيظ قائلاً: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الحج: 72).

يبين ـ سبحانه ـ في هذه الآية مدى حقد الكافرين على القرآن الكريم، وشدة عداوتهم له، ومدى حقدهم لمن يتلو على مسامعهم القرآن.

وقد بدأت الآية بأسلوب الشرط بـ﴿ إِذَا ﴾ وفي هذا دلالة على ارتباط جواب هذا الشرط بفعله، فكلما سمعوا شيئاً من القرآن، أو تُليت عليهم آياته رأيت المنكر في وجوههم من هذه القراءة، يدل على هذا المعنى ويؤكده مجيء لفظة (يُتلى) فعلاً مضارعاً، ففي مجيء هذه اللفظة بهذه الصيغة دلالة على تجدد هذه التلاوة، وتكرر وقوعها.

كما أن في مجيء لفظة ﴿ تُتْلَىٰ ﴾ فعلاً مضارعاً مزيد تشنيع عليهم، وتسفيه لهم بأن هذا موقفهم دائماً وأبداً، إذ لم يحدث هذا الأمر منهم مرة واحدة، بل تتابع حدوثه منهم، وتكرر صدوره عنهم، وهذا غاية الجهل والسفه.

وفي تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إشارة إلى أنهم هم المقصودون من هذه التلاوة، فما تُليت هذه الآيات إلاَّ لهم، ومن أجلهم، لعلهم يُصغون إليها، ويُقبلون عليها، ويُؤمنون بها، ولكنهم مع هذا كله أعرضوا عنها، وكفروا بها.

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ أن هذا القرآن الذي كفروا به، وأعرضوا عنه أنه ﴿ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ ، وثمة دلالة وإيحاء من اختيار لفظة ﴿ ءَايَـٰتُنَا ﴾ في هذا المقام، فلم يقل مثلاً: القرآن، وإن

كانت تؤدي المعنى، وتفي بالغرض، إلاَّ أن في لفظة ﴿ ءَايَـٰتُنَا ﴾ إشارة إلى وضوح القرآن، وشدة بيانه، فهو كالعلامة التي يهتدي بها السائرون، ويسير على هداها السالكون، ومع ذلك فقد كفروا به، وأعرضوا عنه، ومما زاد هذا الأمر سوءاً مجيء لفظة ﴿ ءَايَـٰتُنَا ﴾ جمعاً، ولهذا الجمع دلالته في هذا المقام، فهم لم يكفروا بآية أو آيتين، وإنما كفروا بآيات عدة، وفي هذا مزيد تشنيع عليهم، وبيان لأي مدى بلغ كفرهم، وطغيانهم.

يُبين عظيم جرمهم، وشناعة فعلهم أيضاً أن هذه الآيات التي كفروا بها هي آيات الله ـ كما دلَّ على هذا المعنى إضافتها إلى ضميره ـ سبحانه ـ، فهي آيات الله التي من حقها أن تُؤمن بها النفوس، وتُقبل عليها، وتنقاد لها، لا أن تكفر بها، وتُعرض عنها، كما أن في إضافتها إليه ـ سبحانه ـ تعظيماً لهذه الآيات، وتفخيماً لشأنها، فهلا عظموا ما عظَّمه الله، وفخموا شأنها وأمرها؟!

ثم إن هذه الآيات ـ أيضاً ـ بينات بكل ما تحويه هذه الصفة من دلالات وإيحاءات، فالقرآن واضح الحجج والبراهين والدلالة، لا لبس فيه ولا غموض لذوي البصائر والتمييز الذين ينشدون الحق ويطلبونه، فهو واضح كل الوضوح، ومع ذلك يتحير فيه هؤلاء المتحيرون، ويكفر به هؤلاء الكافرون الجاحدون.

كما أن في هذا الوصف ﴿ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ تفظيعاً لإنكارهم إياه، لعدم تضمنه ما يدعو إلى الإنكار والإعراض عنه، بل تضمن القرآن ما يدعو النفوس إلى الإيمان به، والإقبال عليه، فكيف يكون هذا موقفهم من القرآن، فهذا هو العجب العجاب .

ومن هنا يُعلم أنهم ما كفروا به، وأعرضوا عنه بسبب غموضه، أو خفاء أمره، أو لأمر كامن فيه، بل كفروا به، وأعرضوا عنه بسبب عائد إلى ذواتهم، ولأمر راجع إليهم في داخل قلوبهم، وقد كشف هذه الحقيقة، وبينها أتم بيان ما جاء في هذا النظم من إظهار في مقام الإضمار في قوله ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج: 72) وذلك أن مقتضى الظاهر أن يُقال: تعرف في وجوههم، ولكن جاء الإظهار ليُبين باعث الإنكار،

والدافع له[1]، فإذا كان هذا حالهم، فلا عجب إذن أن يكفروا بالقرآن، ولو كانت هذه منزلته، وتلك مكانته، فمن خلال دلالة هذا الإظهار تزول الدهشة والعجب أن يكفروا بالقرآن مع جلالة قدره، وسمو منزلته، بعدما عُرف السبب فقد بطل العجب من موقفهم من القرآن.

كما أن في هذا الإظهار تسجيلاً وشهادة عليهم بالكفر، ووصمهم به[2]، فهم أهل كفر وجحود لا يقبلون الحق، ولا ينقادون إليه، بل يقابلونه بالكفر والإنكار،كما أن في هذا الإظهار تبكيتاً لهم، وتثريباً عليهم على ما يبطنونه من الكفر بهذه الآيات، ومن جاء بها، أو تلاها عليهم.[3]

وبعد أن بيَّن ـ سبحانه ـ عظمة هذه الآيات، وجلالة قدرها، وبعد أن بيَّن باعث القوم في كفرهم بها، وإنكارهم إياها، بيَّن بعد ذلك كله موقفهم من هذه التلاوة، وأثرها عليهم في قوله ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج:72) فذكر أنهم مع كفرهم بهذه الآيات، وإعراضهم عنها، فإنهم إذا تليت عليهم هذه الآيات ظهر الإنكار في وجوههم، وهو التجهم والبسور والعبوس[4]، وهذا كله كناية عن شدة غيظهم وغضبهم على من يتلو عليهم القرآن، وفرط إنكارهم لهذا الحق المتلو عليهم، حتى ظهرت آثاره على وجوههم، فيكون في هذا التعبير كناية عن امتلاء قلوبهم بالغيظ والإنكار، وأنهم بلغوا بذلك أمراً عظيماً حتى تجاوز الحقد والغيظ قلوبهم، وطفح على وجوههم، ففي هذا التعبير كناية عن شدة غيظهم، وقوة حنقهم على القرآن، ومن جاء به، ومن تلاه عليهم.[5]

كما في هذا التعبير كناية عن شدة بغضهم للآيات، وعظيم كرههم لها، لذا ترى

---

(1) انظر: البحر المحيط: 358/6.

(2) انظر: الدر المصون: 167/5.

(3) انظر: حاشية الصاوي: 109/3.

(4) انظر: الكشاف: 22/3.

(5) انظر: التحرير والتنوير: 334/17.

وجوههم لذلك مكفهرة متجهمة؛ لشدة بغضها، وفرط كراهيتها.[1]

وكثيراً ما يأتي ذكر ملامح الوجه، وما يعلوه من الآثار كناية عما في القلب من النعيم والسرور، أو ما فيه من الغيظ، وشدة الغضب، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (المطففين: 24)، فهي كناية عن شدة نعيمهم، وفرط مسرتهم بالنعيم، وسعادتهم به.[2]

ولأجل هذه الكناية عُدل بهذا النظم القرآني عن قوله (أنكروه، أو ينكرونه)، مع أنه أشد اختصاراً في العبارة، فقد أُوثر هذا الأسلوب لما تضمن من هذه الكناية التي تكشف موقف هؤلاء الكفرة من القرآن، ومن الذين يبلغونهم إياه، ويتلونه عليهم، ومن هنا تتجلى بلاغة هذه الكناية، وأثرها في سياق ذكر موقف الكافرين بالقرآن والمنكرين له، فقد جاءت معبرة عن هذا الموقف، مبينة له مع ذكر الدليل الدال عليه، المبين له أتم بيان، فتأمل بلاغة هذا القرآن، وتدبر إعجازه.

يدل على هذه الكناية ويؤكدها أن هؤلاء الكفرة من شدة هذا الغيظ، وفرط ذلك الحقد لم يقفوا عند هذا الحد من الإنكار والتجهم بل إنهم ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ (الحج:72) كما ذكر الله عنهم ذلك، فكأن هذا السطو نتيجة طبعية لذلك الإنكار، ودلالة عليه، وذلك أن أهل مكة من كفار قريش ـ لشدة كفرهم ـ كانوا إذا سمعوا الرجل من المسلمين يتلو عليهم القرآن يكادون يبطشون به[3]، والمراد بالسطو: القهر، وشدة البطش، والوثوب[4]، والمعنى: أنهم يكادون يهمّون بالبطش والوثوب على من يتلو عليهم القرآن، وذلك لشدة غيظهم، ولعظم إنكارهم لما خُوطبوا به،

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن: 340/3.
(2) انظر: التحرير والتنوير: 334/17.
(3) انظر: معاني القرآن: 230/2، للفراء.
(4) انظر: الكشاف: 22/3.

ولكفرهم لما تُلي عليهم، فهم لا يصغون إلى هذه الآيات، ولا يلتفتون إلى ما جاء فيها، أو يتلقونها بالإيمان والقبول، بل تأخذهم العزة بالإثم، والأنفة والحمية فتراهم يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم هذه الآيات، فهم ((لا يناهضون الحجة بالحجة، ولا يقرعون الدليل بالدليل، إنما يلجؤون إلى العنف والبطش، عندما تعوزهم الحجة، ويخذلهم الدليل، وذلك شأن الطغاة دائماً يشتجر في نفوسهم العتو، وتهيج فيهم روح البطش، ولا يستمعون إلى كلمة الحق؛ لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلاَّ العنف الغليظ)).[1]

وقد فُصلت هذه الجملة ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ (الحج: 72) عن الجملة التي قبلها، وذلك أن بين الجملتين كمال الاتصال[2]، فيصح أن تكون هذه الجملة (يكادون ...) بدلاً من الجملة التي تقدمتها[3]، كما يصح ـ أيضاً ـ أن تكون بياناً وتفسيراً لما تقدمها، فقد بينت معنى قوله ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج: 72).

وعلى هذا فهذه الجملة ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ (الحج:72) كناية ـ أيضاً ـ كسابقتها عن شدة غيظهم، وفرط حنقهم على هؤلاء المؤمنين الذين يتلون عليهم آيات ربهم، ففيها بيان لموقف الكافرين من القرآن، وممن جاءهم به، أو تلاه

---

(1) في ظلال القرآن: 2443/4، يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: ((وهكذا نرى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لايحيط به الوصف، والله ناصر الحق، ومظهر الدين، وداحض الباطل، ودامغ البدع ... وهو حسبنا ونعم الوكيل)) (فتح القدير: 468/3).

(2) انظر: التحرير والتنوير: 335/17.

(3) انظر: التحرير والتنوير: 335/17.

عليهم.(1)

وبعد أن بيَّن ـ سبحانه ـ حالهم مع القرآن، وبعد أن ذكر شدة غيظهم وحنقهم على من يتلو على مسامعهم، بيَّن بعد هذا مصير أولئك الكافرين، وجزاءهم على موقفهم ذلك في قوله ﴿ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (الحج: 72).

يقول ـ سبحانه ـ لهم إن كنتم تكرهون هذه التلاوة، وتتميزون غيظاً منها، ومن الذين يتلونها عليكم فإن ثمة أمراً هو أشد عليكم كرهاً وضرراً من هذه التلاوة، وهو ما أُعدَّ لكم يوم القيامة بسبب كفركم بالقرآن، وإعراضكم عنه، وإنكاركم له.(2)

ولا يخفى ما تضمنه فعل الأمر ﴿ قُلۡ ﴾ من التهديد لهم، والقرع الشديد لمسامعهم، كما أن في هذا الاستفهام تهكماً بهم، وسخرية واستهزاء، وذلك أنه استفهام مستعمل في الاستئذان، وطلب الأمر منهم بذلك، فهو تهكم بهم، وازدراء بحالهم، فقد أخبرهم ـ سبحانه ـ بهذا الأمر، دون أن ينتظر جواباً منهم، إهانة لهم، وتهكماً بهم.(3)

وقد فُصلت جملة ﴿ ٱلنَّارُ(4)وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ ﴾ (الحج: 72) عن الجملة التي قبلها، وذلك أن بينها وبين الجملة التي قبلها شبه كمال الاتصال، فقد جاءت هذه الجملة

(1) وقد ذكر الشوكاني: أن سبب الفصل بين الجملتين هو شبه كمال الاتصال، فقد جاءت الجملة الثانية مستأنفة جواباً عن سؤال ناشئ من الجملة الأولى، فكأنه قيل: ما ذلك المنكر الذي يُعرف في وجوههم، فقيل: يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا. انظر: فتح القدير: 468/3.

(2) انظر: جامع البيان: 202/17.

(3) انظر: التحرير والتنوير: 336/17.

(4) لفظة (النار) يجوز فيها الأوجه الإعرابية الثلاثة: الرفع، والنصب، والجر، فأما الرفع فعلى تقدير هي النار، وهو الأصح في النحو، وفي معنى هذه الآية، وأما النصب فعلى تقدير: أعني النارَ، وأما الجر فتكون بدلاً من لفظة (شر)، انظر: معاني القرآن وإعرابه: 438/3.

جواباً لسؤال ناشيء من الجملة التي قبلها، فكأن سائلاً يقول: ما هذا الأمر الذي هو شرٌّ من ذلك، فجاءت هذه الجملة جواباً عن هذا السؤال.[1]

وفي قوله ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إظهار في مقام الإضمار، وكان مقتضى الظاهر أن يُقال: وعدكم الله بها، بذكر ضميرهم لتقدم ما يدل عليهم، ولكن جاء الإظهار في هذا المقام ليبين سبب توعد الله لهم بالنار، واستحقاقهم إياها، وهو كفرهم بالله[2]، فقد جاء الإظهار ليبين أنهم كَفَرَة فَجَرَة كفروا به ـ سبحانه ـ وبكتابه، وأعرضوا عنه، وأنكروه، وأنكروا كل ما جاء فيه، بل بلغ بهم الكفر وذلك الإنكار أن يسطوا على من يتلو عليهم آيات هذا الكتاب، فلا عجب أن يصدر منهم هذا كله تجاه هذا الكتاب، وتجاه هؤلاء المؤمنين، وذلك أنهم كافرون بالله العظيم، ومن هنا جاء الإظهار في هذا المقام دلالة على هذه المعاني كلها، وإشارة إليها .

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ أن هذه النار التي توعدهم بها أنها بئس المصير، أي بئست مآلاً ومصيراً يؤول إليه هؤلاء الكافرون يوم القيامة، فليس لهم إلاَّ النار، فالنار هي المخصوص بالذم، وقد حُذفت لظهورها، والعلم بها[3]، إذ ليس لهم مأوى ومآل يوم القيامة إلاَّ هذه النار، فهي شر مآل ومصير؛ وذلك لطول مكثهم فيها، ولشدة عذابهم فيها، وزيادة آلامهم، نكاية بهم، وما ربك بظلام للعبيد، فهي الجزاء الذي يليق بكفرهم بربهم، وتكذيبهم بالقرآن، وإعراضهم عنه، وإنكارهم إياه.

---

(1) انظر: التحرير والتنوير: 336/15.
(2) انظر: المصدر السابق: 337/15.
(3) انظر: حاشية القونوي: 295/5.

ثانياً: التعريض:

يُقال عرَّض تعريضاً: إذا لم يُبيِّن المتكلم، والتعريض خلاف التصريح، يُقال: عرَّض بفلان إذا قال فيه قولا، على جهة الذم والعيب[1]، والتعريض هو: إمالة الكلام عن وجه إلى عرض، وهو الجانب، والناحية[2]، ومن هنا سُمي هذا الأسلوب تعريضاً؛ وذلك ((أن المعنى فيه يُفهم من عرضه، أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه)).[3]

ومن خلال ما تقدم يتضح المراد من التعريض، فهو . كما عرفه الزمخشري .: ((أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، وأنظر إلى وجهك الكريم... فكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض))[4]، ويحقق المراد، إلاَّ أن إدراك هذا الأسلوب بحاجة إلى ذهن وقَّاد، وفكر صافٍ؛ لاستخراجه، والوقوف على أسراره ؛ وذلك أن إدراك المعنى المعرَّض به في الأساليب الأدبية لا يستطيعه إلاَّ من أُوتي حظاً من الفهم والتذوق، وليس الفهم الأدبي ((وقوفاً عند الدلالات اللغوية للأساليب، وإنما هو ذهاب وراء هذه النصوص، وبحث في أضواء كلماتها، وتسمع لخافيَّات إيحاءاتها، والناس في هذا مختلفون كل حسب قدرته)).[5]

وقد استخدم العرب التعريض، وأكثروا منه، فيبلغون به مقاصدهم بأسلوب حسن لطيف، دون التصريح بها، والنصِّ عليها، يل قد يعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كل شيء.[6]

ويتضح مما تقدم أن هناك تقارباً بين الكناية والتعريض، إلاَّ أن هناك فرقاً جوهرياً

---

(1) انظر: لسان العرب: مادة: عرض.

(2) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 255/2.

(3) المثل السائر: 57/3.

(4) الكشاف: 373/1.

(5) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 563.

(6) انظر: تأويل مشكل القرآن : 263.

بينهما، فهما وإن كان كل واحد منهما يُفهم من الكلام، ولا تدل عليه الألفاظ دلالة حقيقة إلاَّ أن بينهما فرقاً، وممن أشار إلى الاختلاف بينهما، وأظهر ما بينهما من فروق التنوخي، يقول: ((ومن البيان الكناية والتعريض، وهما معنيان متقاربان، وربما التبس على كثير من الفضلاء أمرهما، فمثَّلَ أحدهما بما يستحق أن يكون مثالاً للآخر، وربما كان ذلك لكون اللفظ صالحاً للكناية من وجه، وللتعريض من وجه، والفرق بينهما: أن الكناية وضع لفظ يُراد به معنى يُعرف من لفظ آخر هو أحق به، ولكن يعدل عنه لقبحه في العادة أو لعظمه أو لستره، أو لما ناسب ذلك من الأغراض، والتعريض: أن يذكر شيء يفهم منه غير ما وضع له لمناسبة ما بين المعنيين)).(1)

وقد ورد التعريض في القرآن كثيراً، وذلك في مقامات ذم المشركين، والتهكم بهم، والتنقص منهم وازدرائهم، على مواقفهم المتعددة من الرسالة وصاحبها والكتاب الذي جاء به.

وقد بيَّن الأستاذ أحمد بدوي قيمة هذا الأسلوب في القرآن قائلاً: ((والتعريض وسيلة مؤدبة مؤثرة معاً، فضلاً عن إيجازها، أما إنها مؤدبة؛ فلأنها تَصِلُ إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل، ومؤثرة من ناحية أنك تُوحي بأن ترك التصريح بما يخالف ما أثبته هو من الوضوح بمكان، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحي أحياناً بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت وما نفي)).(2)

وقد برز هذا الأسلوب في حديث القرآن عن القرآن، فما أكثر الآيات التي يتم فيها التعريض بموقف المشركين وغيرهم من القرآن .

---

(1) الأقصى القريب في علم البيان: 72، لمحمد بن محمد التنوخي ، وللاستزادة في النظر في الفروق بين هذين الأسلوبين، انظر: المثل السائر: 49/3، و: الطراز: 397/1، و: معجم المصطلحات البلاغية:380.

(2) من بلاغة القرآن: 160.

ومن شواهد هذا الأسلوب في حديث القرآن عن القرآن قوله . تعالى .: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ (الرعد: 19).

يذكر . سبحانه . في هذه الآية أحوال الناس مع القرآن، وانقسامهم فيه، فذكر أن الناس انقسموا فيه قسمين: قسم هم المؤمنون الذين يعلمون أن القرآن منزل من عند الله فيؤمنون به، ويصدقونه، ويعملون بما فيه.

وأما القسم الثاني فهم الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب، ولم يقبلوا عليه، ولم ينظروا إلى ما فيه، ولم يكن لهم فيه حظ ولا نصيب، فهذا هو حال الناس مع القرآن، وانقسامهم حوله، وقد جاء نظم هذه الآية مبرزاً مكانة كل قسم من هذين القسمين، مبيناً حقيقته، ومشيداً به.

فأما المؤمنون بهذا الكتاب، المصدقون به، وبما جاء فيه، فقد أخبر . سبحانه . عنهم أنهم يعلمون حقيقة هذا الكتاب، ويقفون عند حقائقه وأسراره، يدل على هذا المعنى ويومئ إليه لفظة ﴿ يَعْلَمُ ﴾ حينما جاءت فعلاً مضارعاً . بدلالتها على التجدد والحدوث . فقد تجدد علمهم، وتكرر وقوعه منهم فازدادوا إيماناً ويقيناً بحقيقة هذا الكتاب، وما جاء فيه، وكيف لا يكون هذا موقفهم من هذا الكتاب وهم يعلمون أنه نازل من عند ذلك الرب السيد المالك، فهو سيدهم، ومالك أمرهم، لذا فإنه لا ينزل في هذا الكتاب إلاَّ ما فيه فلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فلما تدبر المؤمنون القرآن، وأقبلوا عليه، وأنعموا النظر فيه أدركوا أنه الحق الذي لا شك فيه ولا امتراء، ولا اختلاف لأنه نازل من عند الله، فهذا الأمر وحده ينفي عنه الاختلاف والتناقض، فهو حق كله، يُصَدِّق بعضه بعضاً، ولا يخالفه في شيء أو يضاده، فأخباره حق كلها، وأوامره ونواهيه عدل كلها.[1]

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم: 559/2.

وأما القسم الآخر فحسب هذه اللفظة ﴿ أَعۡمَىٰٓ ﴾ دلالة وإشارة إلى واقعهم وحالهم مع القرآن، وبيان لموقفهم منه، وذلك أن معنى الآية: أفمن يعلم كمن لا يعلم، إلاَّ أن النظم القرآني جاء بلفظة ﴿ أَعۡمَىٰٓ ﴾ ، ولهذه اللفظة دلالتها وإيحاؤها في هذا السياق، وذلك أن في التعبير عمن أعرض عن هذا القرآن وكفر به أنه أعمى بياناً لتقبيح حاله، وإيضاحاً لما هو عليه من التخبط والضياع في ظلمات الجهل، وغياهب الضلال.[1]

ولسيد قطب كلام نفيس عن لفظة ﴿ أَعۡمَىٰٓ ﴾ وإيحائها في هذا السياق، يقول: ((وإن المقابل لمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك هو الحق، ليس من لا يعلم هنا، وإنما هو الأعمى، وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب، وتجسيم الفروق، وهو الحق في الوقت ذاته، لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف، فالعمى وحده هو الذي يُنشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلاَّ على أعمى)).[2]

وقد جاء الاستفهام في قوله ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ ﴾ مبيناً ما بين هذين القسمين من الفروق والاختلاف، فقد أشار الاستفهام إلى ما بين هذين الفريقين من التفاوت والتباين، فبينهما كما بين السماء والأرض.

وقد دلَّ الاستفهام على إنكار من يجعل هذين الفريقين في المنزلة سواء، فهو إنكار أن يقع في الذهن أدنى مماثلة بينهما، فجاء الاستفهام لإنكار من يتوهم المماثلة بينهما بعد ظهور الدلائل والأحوال التي تشير إلى ما بينهما من فروق، واختلاف في الحال والمآل.

إذن فهذه هي دلالة هذا الاستفهام، فقد جاء لإيضاح هذا الأمر وتقريره، فاختلاف هذين القسمين أمر لا شك فيه ولا جدال، وهذا ما أبانت عنه هذه الآية وقررته، فهي حقيقة من الحقائق ولكن من يدرك هذه الحقيقة ويعيها غير أولي الألباب، كما قال ـ تعالى ـ في ختام الآية ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (الرعد: 19) فأولو الألباب وحدهم الذين يدركون

---

(1) انظر: روح المعاني: 139/13.

(2) في ظلال القرآن: 2056/4.

أن هناك تفاوتاً بين هاتين المنزلتين، وتبايناً بين تلك الرتبتين.[1]

وقد جاءت هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: 19) بإثبات التذكر لأولي الألباب وقصره عليهم، وهذا من الوضوح بمكان، وذلك أن القصر بطريق (إنما) إنما يكون في المعاني المعلومة الواضحة، التي لا يُنكرها المخاطب ولا يشك فيها، بيد أن خلف هذا القصر تعريضاً بأولئك المشركين الذين لم يستجيبوا للقرآن، ولم ينتفعوا به، وفي هذا تعريض بهم فهم لا عقول لهم، وليس لديهم نظر صحيح ثاقب يقودهم إلى الإيمان بالقرآن، والإقبال عليه، إذ لو كان لهم قلوب يفقهون بها لما ترددوا في قبول الحق والاستجابة له، ومن هنا يتبين أن في طيات هذا القصر تعريضاً بموقف المشركين من القرآن، وذلك لِما تضمن هذا القصر من نفي وإثبات، فقد أثبت التذكرة لأولي الألباب، وفي الوقت نفسه نفاها عن غيرهم.

ولو خلا النظم في هذا الموضع من الحصر وقيل: يتذكر أولو الألباب، لخلا من التعريض أيضاً، لأن فيه إثبات هذه التذكرة لأولي الألباب دون نفيها عمن سواهم.

ولذا كان أجمل مواقع (إنما) في الكلام هو استخدامها في التعريض، كما في هذه الآية، وقد أكَّد هذه الحقيقة وقررها عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن (إنما) حينما قال: ((ثم اعلم أنك إذا استقريتَ وجدتها أقوى ما تكون، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يُراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: 19) أن يعلم السامعون ظاهرَ معناه، ولكن أن يُذم الكفار، وأن يُقال: إنهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم إن طمعتم منهم أن ينظروا و يتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك

---

(1) انظر: فتح القدير: 78/3.

من غير أولي الألباب ﴾.(1)

ومما يجدر التنبه له ونحن نتحدث عن هذا التعريض ودلالاته في حديث القرآن عن القرآن أن نلحظ ما يأتي:

أولاً: أن القوم المعرَّض بهم، هم الذين تقدم ذكرهم في صدر الآية، ووُصف الواحد منهم بأنه أعمى، فأنى لهؤلاء القوم وقد أعمى الله بصائرهم، وطمس نورها، وختم عليها أن ينتفعوا بالقرآن، ويتذكروا به؟!

ثانياً: في مجيء لفظة ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾ فعلاً مضارعاً دلالة في هذا التعريض، وبيان له، وذلك أن المؤمنين الذين نعتهم الله بأنهم أولو الألباب ينتفعون من القرآن على وجه التجدد والحدوث، فإذا كان هذا هو حالهم مع القرآن، فإن أولئك القوم المعرَّض بهم على النقيض من هذا تماماً، فهم لم يحركوا بالقرآن ساكناً، ولم يقبلوا عليه أبداً، ولم يصغوا إليه ألبتة، فكان من نتائج هذا ودلائله أن أعمى الله أبصارهم، وطمس على بصيرتهم، ومن ثم كان طبعياً أن يُعرِّض بهم، ويُشير إلى حالهم، ويذكر واقعهم مع القرآن، ويبين موقفهم منه.

ثالثاً: في هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: 19) إشارة إلى أن المؤمنين أدركوا الغاية من إنزال القرآن، وحققوها، وعملوا بمقتضاها، وهي تدبر القرآن، والتذكر به والاعتبار، فهذه هي الغاية من إنزال القرآن، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: 29)، وفي هذا دلالة ـ أيضاً ـ على أن القوم المعرَّض بهم لم يدركوا غاية نزول القرآن، ولم يتبينوا مقاصده وأهدافه، فإذا كان هذا حالهم فلا عجب إذن أن يكفروا به، ويُعرضوا عنه، وأن يكون هذا موقفهم من القرآن، وحالهم معه.

---

(1) دلائل الإعجاز: 354، ثم ذكر بعد هذا كلاماً نفيساً حول التعريض بـ(إنما)، تحسُن قراءته، والوقوف عنده .

وقد دلَّ على هذه المعاني كلها، وأشار إليها التعريض الذي جاءت به هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (الرعد: 19) ومن هنا تتجلى بلاغة التعريض ودلالته في حديث القرآن عن القرآن، وذلك من خلال بيان موقف هؤلاء المشركين من القرآن، وبيان سبب إعراضهم عنه، وكفرهم به، وقد تمَّ بيان هذه الأمور كلها، وذكرها تعريضاً لا تصريحاً.

● وفي موضع آخر . من مواضع حديث القرآن عن القرآن . يذكر . سبحانه . نعت القرآن العظيم، وصفته التي جاء بها، وما ضمَّنه . سبحانه . من عظائم الصفات وجليلها، وفي الوقت نفسه يُعَرِّض بموقف المشركين من القرآن، مشيراً إلى مقولاتهم فيه من طرف خفي، في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ ﴾ (الطارق: 13 . 14).

يبين . سبحانه . أن القرآن جاء فيصلاً بين الحق والباطل، مبيناً كل واحد منهما، ومميزاً له عن الآخر، فالقرآن حق وحدٌّ بين الحق والباطل، والهداية والضلال.[1]

وقد جاء نظم الآية كلها محققاً هذا المعنى، ومؤكداً له، يتجلى هذا الأمر من خلال ما يلي:

أولاً: إضمار ذكر القرآن في هذا السياق دون إظهاره، فالضمير في قوله ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ عائد على القرآن، ولم يتقدم ما يدل عليه، أو يشير إليه، فكان حقه الإظهار، ولكن جاء الإضمار هنا ليبين ظهور هذا القرآن، وحضوره في الأذهان، وشدة علوقه بالقلوب والنفوس، فهو حاضر وماثل في الأذهان، فكأن أذهانهم خلت من كل شيء سواه فلا تنصرف الأذهان إلاَّ إليه، ولا يخطر بالبال غيره؛ وذلك لعظمته في النفوس، وجلالة قدره، وعلو منزلته، وفي هذا دلالة على قرب المؤمنين منه، وشدة تعلقهم به، وذلك من خلال مداومة قراءته، واستمرار تدبره، وتأمله وإنعام النظر فيه.

(1) انظر: معالم التنزيل: 474/4.

ثانياً: مجيء الخبر مؤكداً بهذه المؤكدات بـ(إن، واللام) وفي هذا بيان لعظم ما تضمنه هذا الخبر، وتقرير له، وأنه حق لا جدال فيه، ولا امتراء، فضلاً عن جحود هذا الأمر أو إنكاره، كما في هذا التوكيد إشارة إلى عظم القرآن، وجلالة قدره، فقد اقتضت هذه العظمة، وناسب تلك المكانة أن يأتي الخبر مؤكداً بهذه المؤكدات، دلالة على هذه المعاني كلها، وتقريراً لها.

ثالثاً: مجيء لفظة ﴿ فَصۡلٞ ﴾ بهذه الصيغة، فلها دلالتها وإيحاؤها في هذا المقام الذي جاءت فيه، فقد جاء الإخبار بأنه فصل بصيغة المصدر، وفي ذلك إشارة إلى الحد العظيم الذي بلغه القرآن، ووصل إليه في هذه الصفة، ففي هذه الصيغة مزيد من إثباتها للقرآن، وتمكينها له، فقد بلغ القرآن الغاية في هذه الصفة، وفي تحقيقها[1]، حتى صار هو نفس الفصل، وذلك على حد قولهم: رجل عدل.[2]

وبعد أن بيَّن ـ سبحانه ـ في هذه الآية عظمة القرآن، وجلالة قدره، وعلوه في الشرف والمكانة قال: ﴿ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الطارق: 14) بيَّن ـ سبحانه ـ أن هذا القرآن جدٌّ كله لا عبث فيه، ولا باطل[3]، فليس فيه أدنى شائبة من شوائب الهزل أو اللعب، فكله جدٌّ وصدق، فإذا كان هذا نعت القرآن، وذلك وصفه فمن حقه علينا جميعاً ((أن يكون مهيباً في الصدور، معظَّماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يُلِمَّ بهزل، أو يتفكه بمزاح)).[4]

---

(1) تجنبتُ إطلاق لفظة (المبالغة)، فقد ذكر بعض المفسرين أن مجيء لفظة {فصل} بهذه الصيغة لإفادة المبالغة (انظر: التحرير والتنوير: 267/30)، ولكني تحاشيتُ إطلاق هذا الوصف على لفظة من القرآن الكريم؛ وذلك أن هذا الوصف (المبالغة) مشعر أن هذه اللفظة تجاوزت الحدَّ في هذه الصفة، وأفرطت فيه، وما أبعد ألفاظ القرآن ومعانيه عن هذا الوصف ودلالته، بل مهما قلنا في هذه الألفاظ، وفي تلك المعاني فلن نوفيها حقها، ولن نقدر قدرها، وقصارى جهدنا إشارات ودلالات، والله أعلم.

(2) انظر: روح المعاني: 100/30، و: التحرير والتنوير: 267/30.

(3) انظر: إرشاد العقل السليم: 142/9.

(4) الكشاف: 242/4.

كما في هذا الوصف دعوة لأن يهتدي به الغواة والضُّلال، وأن تخضع له رقاب العتاة، وتنقاد نفوسهم له، لِمَ لا وهو خطاب رب العالمين لعباده، فقد خاطبهم به، فإذا كان هذا حاله وشأنه فإن الإصغاء إليه، وإلإقبال عليه، والاستماع له، والائتمار بأمره، والانتهاء بنواهيه والوقوف عند زواجره فرض لا محيد عنه ولا مناص.(1)

ومن يتأمل نظم هاتين الآيتين، ويمعن الفكر فيهما يجد أن الجملة الثانية عُطفت على الجملة التي قبلها، وقد جاءت الآية الثانية بعد ذكر محامد القرآن وأوصافه، والثناء عليه، فما وجه العطف فيهما؟ وما المناسبة بين هاتين الآيتين؟ وما المعاني والدلالات التي جاءت من أجلها الجملة الثانية حينما عُطفت على الجملة الأولى؟ وبيان هذا كله: أن الآية الثانية جاءت تعريضاً بالكفار من موقفهم من القرآن، فقد رأى أولئك الأقوام أن القرآن هزل لا جدَّ فيه، ولا حق، ومن ثم سخروا به واستهزؤوا، ففي هذا تعريض بهم، بذكر موقفهم من القرآن، وتعجب منهم، فقد كانوا يعجبون من القرآن، كما ذكر ذلك الله عنهم في قوله ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ۝ ﴾ (النجم: 59 . 61)، فكأنهم حينما تعجبوا من القرآن، قد عدَّوه هزلاً لا جداً، وباطلاً لا حقاً.(2)

ومن هنا جاء التعريض مشيراً إلى هذا المعنى، ودالاً عليه، يقول الطاهر بن عاشور . في حديثه عن هذه الآية .: ((ومثل هذه الصفة إذا وردت في الكلام البليغ، لا محمل لها إلاَّ إرادة التعريض، وإلاَّ كانت تقصيراً في المدح، ولا سيما إذا سبقتها محمدة من المحامد))(3)، ومن هنا كانت هذه الآية تعريضاً بموقف المشركين من القرآن، وتسفيهاً عليهم، وإنكاراً لذلك الموقف.

ولا يخفى ما تضمنته من الإنكار البالغ على أولئك المشركين بسبب موقفهم من

---

(1) انظر: حاشية الصاوي: 310/4.

(2) انظر: حاشية القونوي: 94/7.

(3) التحرير والتنوير: 267/30.

القرآن، والتشنيع عليه، وقد أظهر غرض هذا التعريض، ودلَّ عليه الآية التي سبقت هذه الآية في قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الطارق: 13) فقد تضمنت الإشادة بالقرآن، وبيان قدره، وجليل منزلته، فإذا كان هذا قدره وتلك منزلته، فما بالك بحال من يعرض عنه، ويكفر به، فإن في هذا زيادة في الإنكار عليهم، وفي تسفيه عقولهم، والتشنيع عليها.

كما في هذا دلالة على شدة كفرهم، وبيان لعظم جرمهم، وأنهم قد بلغوا الغاية في الجحود والإنكار، وإلاَّ فما يمنعهم من الإيمان به، والإقبال عليه، وهذا هو حاله، وتلك منزلته، ومن ثم جاءت الآية الأخرى كالتأكيد لما تقدمها، والتعليل لها بما تضمنت من الدلالة على التعريض، وإفادتها إياه.

المبحث الرابع:
خصائص التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن

من خلال تلك الوقفات التحليلية لبعض الآيات في حديث القرآن عن القرآن تتجلى كثير من الخصائص التصويرية البيانية لتلك الآيات في حديثها عن القرآن، في مجالات متعددة، وفي مواقف متباينة، وأغراض شتى متفرقة.

الخصائص البيانية لأسلوب التشبيه:

فعند النظر في التشبيهات الواردة في حديث القرآن عن القرآن نجد أن لهذه التشبيهات أهدافاً تسعى إلى تحقيقها، وأغراضاً تحرص أن تصل إلى غاياتها وإدراكها، فقد كان التشبيه يهدف إلى التأثير في العاطفة، واستمالتها إليه، فتراه بهذا التشبيه يُرغِّب ويُرهِّب، ويُبشر ويُنذر، ويُقبِّح ويُزيِّن(1)، وذلك من خلال هذه التشبيهات ودلالتها في سياقاتها التي ترد فيها، وتبعاً للأغراض التي تُساق من أجلها.

فكثيراً ما يأتي التشبيه في الترغيب والترهيب؛ ليتقرر . بالتشبيه . ذلك الأمر المرغَّب فيه حتى تُقبل عليه النفوس، وتُؤمن به،كما أنه يُوضح المرهَّب منه حتى تنفر منه النفوس، وتعرض عنه.(2)

ومن هنا كان للمشركين والمنافقين نصيب وافر من التشبيه في هذه الآيات في حديثها عن القرآن، فقد كشف التشبيه واقعهم، وبيَّن حالهم، مصوِّراً . كذلك . وَقْع القرآن على قلوبهم، وكيف كانوا يقابلون القرآن بالنفور والإعراض.

فقد جاء التشبيه في حديث القرآن عن القرآن مصوِّرا ((حالهم وقد استمعوا إلى دعوة

(1) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 205/2 .

(2) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 89/2 .

الداعي، فلم تؤثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها، لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق، وما قد يكون فيها من صواب، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً، ولم يطرق أذنه عنها نبأ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله، وبمن أُصيب بالبكم، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه أبداً ... وبذلك شبههم القرآن، فقال:﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾)[1] (الجاثية: 7 ـ 8).

وكما صوَّر هذا المعنى أتم تصوير، وبيَّنه أتم بيان، فقد شبه المعرضين عن القرآن بالحمر في قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (المدثر: 49 ـ 51)، وذلك لبيان شدة إعراضهم عن القرآن الكريم، ونفورهم منه.

هذه بعض من أهداف التشبيه، ومجمل غاياته في حديث القرآن عن القرآن، وعندما ننظر في خصائص هذا التشبيه ومميزاته في حديث القرآن عن القرآن نجد أنها جاءت متوافقة مع هذه الأهداف، وتلك الغايات.

فقد تبين من مبحث التشبيه ـ من خلال تلك الآيات التي ذُكر فيها موقف المشركين من القرآن، وحالهم معه ـ كثير من الخصائص التي تميز بها هذا التشبيه، وباين به أسلوب البشر وتشبيهاتهم، فلقد تميزت التشبيهات الواردة في حديث القرآن عن القرآن بعدة خصائص، ومن هذه الخصائص ما يلي:

1- أن عناصر التشبيه مستمدة من الطبيعة نفسها، من نباتها وحيواناتها وجمادها، فهذه الطبيعة ميدان تُقتبس منها تلك التشبيهات، وتُستمد منها تلك العناصر، فمن عناصر تلك الطبيعة التي تقع تحت أبصارهم، ومن بين أظهرهم تكوَّنت

---

(1) من بلاغة القرآن: 204.

أجزاء تلك التشبيهات(1)، كما تتضح هذه الخاصية وتبدو جلياً في قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (المدثر: 49 ـ 51)، فقد شبه القرآن إعراضهم بحمر قد استنفرتها الأسود، تريد قتلها، والفتك بها، فتأمل هذا التشبيه في هذه الآيات تجد أنه من صميم البيئة التي يعيشون فيها، فقد ألفوا مشاهدة هذا المنظر، ومعايشته.

وتكمن بلاغة هذه الخاصية أنها تحقق الغرض من التشبيه، والهدف المنشود من ورائه، وفي هذه الخاصية سرٌّ من أسرار خلود هذه التشبيهات، وديمومة تأثيرها في حس الناس ووجدانهم، على اختلاف مداركهم، وتباين أفهامهم؛ لكون هذه العناصر المستمدة من الطبيعة ليست مختصة بزمن معين، أو بمكان معين، أو بفئة دون أخرى، من هنا كانت هذه التشبيهات ـ بهذه الخاصية ـ باقية على مر العصور وامتدادها.

2- أن التشبيه الذي يتم في الآيات فيها ليس عنصراً إضافياً في الجملة، أو أنه يقوم بدور ثانوي، بعد اكتمال المعنى وتمامه، كلا فقد كان التشبيه جزءاً أساسياً لا يتم المعنى إلاَّ به، فقد تطلبه المعنى، واستدعاه المقام، بل لو خلا النظم من التشبيه لانهار المعنى من أساسه، وذلك أن التشبيه هو الذي يُظهر المعنى، ويبرزه في صورة واضحة مؤثرة، ومن هنا كان وجود التشبيه ضرورة في الجملة يتطلبه المعنى ليصبح قوياً، وليؤدي الغرض منه، يتضح هذا الأمر جلياً حينما ننظر في التشبيهات التي وردت في حديث القرآن عن القرآن، تأمل قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: 7)، وتأمل قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (المدثر: 49 ـ 51)، تجد أن التشبيه في هذه الآيات عنصر أساسي لا يكتمل المعنى إلاَّ به، ولا يظهر إلاَّ من خلاله، ولو خلت

(1) انظر: المصدر السابق: 197.

الآيات من التشبيه لانهار المعنى، وتلاشى تماماً، كما سيتلاشى معه الغرض من الآيات ويضمحل، فلما كان المراد من هذه الآيات بيان شدة إعراض أولئك القوم عن القرآن، وكفرهم به، جاء القرآن بالتشبيه ليقوم بهذا المعنى، وليؤدي الغرض على أكمل وجه وأتمه، ولو لم يأتِ التشبيه لما اتضح المعنى، ولما تحقق هذا الغرض، ولما تبين شدة إعراضهم عن القرآن، ومدى كفرهم به.

ومن هنا يتبين أن التشبيه في حديث القرآن عن القرآن ركيزة أساسية تُظهر المعنى المراد، وتحقق الغرض المنشود منها.

وهكذا ومن خلال حديث القرآن عن القرآن، ومن خلال ما ورد فيه من تشبيهات يتبين أن ما جاء من تشبيه لم يكن في حد ذاته هدفاً يُسعى له، ((ويُقصد إليه دون أن يستتبع المعنى، ويكون جزءاً أساسياً تتوقف عليه دلالة الآية، فهو نمط من أنماط التصوير القرآني الذي أعجز بلغاء العرب، وظل شامخاً في مجال القول، ومعجزة باهرة تتردد عبر العصور، فلم يتناولها البِلى أو التفكك، فالتشبيه إذن ليس محسِّناً خارجاً عن إطار المضمون، يتجمَّل به النظم، وتَرشُق به العبارة، وإنما هو جوهر داخل المضمون، ليتضح أثره النفسي (1).))

3- الدقة في الوصف، وكثرة القيود فيها: وذلك كله لإظهار الصورة واضحة، دقيقة أخاذة(2)، تأخذ بالألباب، وتأسر الأفئدة، تتجلى هذه الخاصية حين نتأمل قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (المدثر: 49ـ 51)، نجد في هذه الآيات أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقف في تشبيه هؤلاء القوم بالحمر بل أضاف على هذا التشبيه كثيراً من القيود والأوصاف، فهم

(1) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:234، د .فتحي أحمد عامر .

كالحمر في أشد حالاتها هلعاً ورعباً، فهي حمر مستنفرة هاربة لا تلوي على شيء، ولم يقف التشبيه عند هذا الحد، بل ذكر ـ سبحانه ـ مزيداً من القيود في المشبه به حينما بيَّن أن تلك الحمر المستنفرة قد تفرقت فزعة من ملاحقة الأسد لها، ومطاردتها إياها.

وتكمن بلاغة هذه الخاصية ودلالتها في حديث القرآن عن القرآن أن فيها مزيداً من إيضاح حال القوم، وبياناً لموقفهم من القرآن، وإظهاراً لشدة إعراضهم عنه، ونفورهم منه، فهم كالحمر، وليس هذا فقط، بل هم كالحمر في أشد حالاتها هيجاناً واضطراباً، فقد ولت هاربة من تلك الأسود التي هاجمتها، وهو منظر مألوف، ألفه القوم، وشاهدوه كثيراً في بيئتهم التي يعيشون فيها.

4-: أن المشبه في آيات حديث القرآن عن القران قد يكون واحداً، وقد يُشبه باثنين أو أكثر، تأمل قوله ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: 7) تجد أن المعرض عن آيات القرآن قد شُبه بأمرين، فهو حينما استكبر عن هذه الآيات وما جاء فيها صار كأنه لم يسمع هذه الآيات أصلاً وهي تُتلى عليه، كما أن ذلك المستكبر المعرض كأن في أذنيه وقراً، فلاحظ تعدد المشبه به لذلك المشبه الواحد.

وتكمن بلاغة هذه الخاصية ودلالتها في حديث القرآن عن القرآن أن فيها تحقيقاً للغرض الذي سيقت له الآيات، وإظهاراً له، فلما كان إعراض هذا الرجل عن القرآن شديداً، جاء المشبه به متعدداً دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه.

كما أن في هذا تثبيتاً للغرض في النفوس، وذكراً لكثير من الأحوال والصفات التي كان عليها هذا المعرض، فتعددتْ التشبيهات لبيان هذه الصفات، وتلك الأحوال وإظهارها.

ومن هذه الخصائص جميعاً أننا حينما نتأمل التشبيهات الواردة في حديث القرآن عن

القرآن تتجلى لنا خاصية من خصائص التشبيه وهي بلاغة القرآن الكريم، ومقدرته الفائقة في انتقاء الألفاظ التي يتم من خلالها التشبيه.

فقد أدى هذا التشبيهَ ألفاظٌ منتقاة مختارة، لها دلالتها، وإيحاؤها في إبراز التشبيه، وإظهار الغرض منه، وتحقيق غايته وهدفه، تتجلى هذه الخاصية، وتبرز بروزاً جلياً حينما نتأمل قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (المدثر: 49 . 51)، تأمل قوله ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ فقد جاء اختيار هذه اللفظة، والتعبير بها هنا دون غيرها من أسماء الأسد الكثيرة، وذلك أن لهذه اللفظة دلالتها في هذا السياق، وأثرها في إظهار التشبيه، وتحقيق الغرض منه، فلهذه اللفظة إيحاؤها الخاص بها، فهي التي تحقق غرض هذا التشبيه، ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن العظيم، في انتقاء الألفاظ، وإيثارها على ماسواها، وهذه الخاصية تفرد بها القرآن وتميز بها ليس في تشبيهاته فقط، بل هذا هو شأنه في جميع أساليبه، وفي كل موضوعاته التي يعالجها، ويتحدث عنها، فألفاظه كلها قائمة على الانتقاء والاختيار، ولو أدرنا لسان العرب كله وأردنا أن نأتي بلفظة أخرى غير تلك اللفظة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولما اهتدينا إليه أبداً، فلن نجد أبداً لفظة في كتاب الله يمكن أن يُستبدل بها غيرها، أو أن يُستغنى عنها بغيرها.[1]

5- حذف وجه الشبه، وهذه الخاصية تكاد تطرد في تشبيهات القرآن كلها[2]، فمن يتأمل كثيراً من التشبيهات في القرآن يجد أن وجه الشبه غالباً ما يكون محذوفاً، وقد برزت هذه الخاصية في تشبيهات آيات حديث القرآن عن القرآن، تأمل قوله ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: 7) فقد شُبه هذا المعرض المستكبر بمن لا يسمع الآيات أصلاً وهي تُتلى على مسمعه، في أي

(1) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 88/2 .

(2) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 292/2 .

شيء؟ وما وجه الشبه بينهما؟ لم يُذكر، كما شُبه ـ أيضاً ـ هذا المعرض المستكبر بمن أُصيب بوقر في أذنيه، فما وجه الشبه بينهما؟ لم يُذكر في هذه الآية.

وتأمل ـ أيضاً ـ قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (المدثر: 49 ـ 51)، فقد شُبه هؤلاء القوم بالحمر، ولكن في أي شيء ؟ وما وجه الشبه بينهما؟ هل هو في سرعة هروبها ونفورها؟ هل هو في حمقها وغبائها؟ وهي مضرب المثل في ذلك، وهل هو في انطلاقها على وجهها دون هدف ولا غاية ؟ لم يذكر القرآن ذلك، بل حذفه، وطوى ذكره من السياق، فما دلالة هذا الأمر؟ وما إيحاؤه في حديث القرآن عن القرآن ؟ تكمن بلاغة هذه الخاصية أن في هذا الحذف إشارة إلى التماثل التام بين المشبه والمشبه به، إذ ليس الشبه بينهما واحداً أو اثنين حتى يُذكر، ويُشار إليه، بل هما متماثلان متقاربان في أشياء كثيرة، بل في كل شيء، ومن هنا كان الحذف تأكيداً على هذا التقارب والتماثل، وإشارة إلى تلك الصلة القوية بينهما.(1)

وفي هذا مزيد ذم لهم، وحطٌّ من قدرهم وشأنهم، فأي ذم لهم أن يُشبهوا بالحمر في كل شيء، وأي تسفيه لهم بأن يُشار بهذا الحذف أنهم وهذه الحمر متقاربان متماثلان في أمور كثيرة، ومن هنا يتجلى عظم الجرم الذي أقدموا عليه وفداحته حينما أعرضوا عن القرآن، واستكبروا عنه.

كما أن في حذف وجه الشبه إشارة إلى كون الإجمال في مواضعه أبلغ من التفصيل، وآكد في الدلالة، وأقوى في الأثر والتأثير، حتى تذهب النفس في ذلك المحذوف كل مذهب، وتسلك في تقديره كل مسلك، فيكون هذا الحذف باعثاً لكل متأمل على استنباط الأوجه المحذوفة، والوقوف عندها تأملاً وتدبراً.

(1) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : 292/2 .

ولهذه الخاصية دلالتها وإيحاؤها في هذه الآيات التي تذكر موقف القوم من القرآن، وتُبين شدة إنكارهم وإعراضهم عنه، وذلك أننا حين ننعم النظر في التشبيه، ونسرِّح الطرف في أوجه الشبه تتبدى كثير من أوجه الشبه بينهما، فيكون في كل وجه منها ذم لهم، وتسفيه لهم، وحط من قدرهم أن شُبهوا بالحمر بالنظر إلى هذا الوجه، وهكذا.

كما في حذف وجه الشبه دلالة أخرى في هذه الآيات، فقد شبه القرآن هؤلاء القوم بالحمر دون أن يذكر وجه الشبه في هذا التشبيه، فكأنه يقول: حسب هؤلاء القوم مذمة أن يُقرنوا بالحمر، ويُشبهوا بها، بغض النظر عن أوجه الشبه بينهما، فقد أدى هذا التشبيه دوره، وحقق غايته، والهدف منه، وهو في هذه الصورة قد أحدث في نفوسهم أثراً، كما زاده ترهيباً وتهويلاً.

الخصائص البيانية لأسلوب المجاز العقلي:

لا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز سواء كان المجاز لغوياً أو عقلياً، وسواء كان ذلك المجاز اللغوي: مرسلاً أو استعارة إلاَّ لإفادة أسرار متنوعة، وتحقيق أغراض بلاغية متعددة؛ لكون هذا المجاز يؤدي وظيفة جليلة القدر في البيان العربي.

إلاَّ إن للمجاز في القرآن الكريم قدراً رفيعاً، ومستوى عالياً من البيان، تميز عن غيره، وتفرد بخصائص باين بها أسلوب البشر أجمعين.

هذا ما يتعلق بالمجاز بعامة، أما المجاز العقلي فإن له في الكلام شأناً عظيماً، وقدراً رفيعاً، ومن دلائل ذلك أنك ترى المجاز العقلي مركوزاً في طبائع النفوس، يعبرون عنه، ويجري على ألسنتهم وإن لم يعلموا أن هذا مجاز عقلي، فما أكثر ما يقولون: ارتفت الأسعار، وأنبت المطر العشب، ويقولون: فلان غيَّره المال، وذلك أصلحه الزواج، وغيرها من العبارات الكثيرة، وكلها من المجاز العقلي.[1]

وما جرى هذا المجاز على الألسن، وكثر استخدامهم له إلاَّ لما تضمن من الخصائص والمميزات، بيد أن خصائص هذا المجاز ومميزاته لا تتجلى ولا تبرز خير بروز، ولا تظهر بلاغتها، وسرُّ التعبير بها إلاَّ في القرآن الكريم.

وحين نمعن الفكر في المجاز في حديث القرآن عن القرآن فإننا ندرك خصائصه، وشيئاً من بلاغته وأسراره، ومن أبرز هذه الخصائص ما يأتي:

أنه جاء في هذه الآيات متوافقاً أتم التوافق مع حديث القرآن عن القرآن، ومحققاً غاياته، فقد جاء المجاز ليبيِّن عظم القرآن الكريم، وجلالة قدره وشأنه، وليبيِّن ـ أيضاً ـ موقف المؤمنين منه المقبلين عليه، تأمل قول الله ـ تعالى ـ﴿ إِنَّمَا

(1) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 143/2 .

ﵟٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ﵞ (الأنفال: 2)، وأنعم النظر في قوله ﵟ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﵞ لتدرك أن المجاز العقلي جاء لتحقيق ذلك الغرض، ولإبراز عظمة القرآن، ولبيان موقف المؤمنين منه، وحالهم معه، فقد دلَّ المجاز على شدة تعلق المؤمنين بالقرآن تلاوة وتدبراً، وذلك لما جاء فيه من البينات والهدى، التي من شأنها أن تقبل النفوس المؤمنة عليها، وفي هذا إشارة إلى عظم القرآن، وإلى ما جاء في تضاعيفه.

كما أن في هذا المجاز دلالة على أثر القرآن على هؤلاء المؤمنين، ونفعه لهم العاجل والآجل، فقد ازداد إيمانهم به، وازدادوا به رسوخاً وثباتاً على هذا الطريق، وقد جاء المجاز العقلي في هذه الآية ليدل على هذه المعاني العظيمة كلها، ويشير إليها، ومن هنا تتجلى خصائص هذا المجاز، وتبرز حِكمه وأسراره في حديث القرآن عن القرآن من خلال بيان موقف المؤمنين من القرآن، وبيان أثره عليهم، ونفعه لهم في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل نجد أن المجاز العقلي جاء في حديث القرآن عن القرآن لبيان موقف الكافرين به، المكذبين له، كما في قوله ـ تعالى ـ ﵟ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥ﵞ (الإسراء: 45)، فعندما نتأمل قوله ﵟ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﵞ نجد أن فيه كثيراً من الأسرار البلاغية التي تضمنها هذا المجاز، وجاء بها.

وتكمن بلاغة هذا المجاز هنا، وتبرز خصائصه أنه جاء في هذا السياق الذي يتحدث عن هؤلاء المشركين ليبين شدة ما هم فيه من الجحود والإنكار والإعراض عن القرآن، وفي هذا دلالة على أن هذا المجاز العقلي قد وُظف في حديث القرآن عن القرآن أحسن توظيف ليدل على موقف المشركين من القرآن، ويبين حالهم معه، فقد جاء هذا المجاز لإظهار هذه الغايات وتحقيقها، ومن هنا تتجلى خصائص هذا المجاز، وتبرز أسراره البلاغية.

الخصائص البيانية لأسلوب المجاز المرسل:

لا يقل المجاز المرسل قدراً وشأناً عن المجاز العقلي في خصائصه، وفي بلاغاته وأسراره، فقد خُصَّ هذا المجاز . أيضاً . بكثير من الخصائص والأسرار، تتجلى خصائص هذا الأسلوب، وتبلغ الذروة في البلاغة والإعجاز في القرآن الكريم، كما تبدت هذه الخصائص، وبرزت بروزاً واضحاً جلياً في حديث القرآن عن القرآن، التي سبق الوقوف مع جملة منها، والنظر في بلاغة ما جاء فيها من مجاز مرسل، ومن خلال تلك الوقفة ظهرت كثير من خصائص هذا الأسلوب.

وكان لتعدد علاقات هذا المجاز أثر في كثرة وروده في حديث القرآن عن القرآن، ومن ثم كان هذا الأمر سبباً في توافر هذه الخصائص، وبروزها في هذه الآيات، التي كانت تسعى كلها لإظهار غايات هذه الآيات، وتحقيق أهدافها.

ومن خصائص هذا المجاز في حديث القرآن عن القرآن ما يلي:

1: الإيجاز: تبدو هذه الخاصية، وتتجلى في هذا المجاز . كما رأينا في الآيات السابقة . حينما تكون علاقته: اعتبار ما سيكون، كما في قوله . تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ (مريم: 97)، ففي كلمة (المتقين) مجاز باعتبار ما سيكون، فهم متقون بالنظر إلى ما يصيرون إليه، ويؤول إليه حالهم بعد تدبر القرآن، وتأمله والعمل بما فيه، ولا يخفى ما في هذا المجاز من الإيجاز، فقد قامت هذه اللفظة مقام عدة جمل، إذ المراد أن هذا القرآن بشرى للناس الذين يصيرون متقين بسبب إيمانهم بالقرآن، وإقبالهم عليه، فقد أدى المجاز المعنى المراد تحقيقه بألفاظ أقل مما تؤديه الحقيقة، فتأمل بلاغة هذا المجاز كيف عبَّر عن المعنى بهذا الإيجاز البديع، وحسبك بالإيجاز بلاغة، بل هو البلاغة نفسها، فكم تنافس فيه المتنافسون، وكم تفاوت فيه القوم، وتباينت مراتبهم فيه.

2: في هذا المجاز تهويل وتعظيم لمن يعرض عن القرآن، أو يكتم

شيئاً منه جزاء غرض من الدنيا يأخذه مقابل ذلك الكتمان، كما يبدو هذا الأمر جلياً في قوله . تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ (البقرة: 174)، ففي قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ مجاز مرسل بعلاقة المسببية، وذلك حينما جُعل المأكول ناراً، فقد أُطلق المسبب وأُريد السبب، فالنار لا تُؤكل، وإنما هؤلاء القوم يأكلون مالاً حراماً، تتسبب عنه النار، ولا يخفى ما في هذا المجاز من تفظيع لذلك العمل، وتبشيع له، فحسبه فظاعة وشناعة أن كان ذلك الكتمان للقرآن سبباً لأكل هذه النار، ولا يخفى ما تضمن هذا المجاز من التهويل والتعظيم لذلك المآل الذي يؤولون إليه، بذكر هذه الصورة التي ينفر منها أصحاب العقول السليمة، والأفئدة الصحيحة .

كما تتجلى هذه الخاصية في قوله . تعالى . ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ (يونس: 2)، ففي قوله (الناس) . التي تمَّ فيها المجاز المرسل بعلاقة الكلية . تهويل وتعظيم في بيان حال هؤلاء الكفار مع القرآن، وتعجب منه، إذ لم يكفر الناس كلهم بالقرآن، ويتعجبوا بمن جاء به، وبما جاء فيه، بل المراد بهؤلاء الناس المشركون فقط، دون من آمن به، وأقبل عليه، إلاَّ أن في هذا المجاز حينما جاء في هذا السياق . بهذه العلاقة . دلالة على عظم الكفر بالقرآن، والإعراض عنه، ولو كان هذا الأمر صادراً من فئة محدودة، ومن عدد معين محصور، وذلك أن ما جاء في هذا القرآن من البينات والهدى والمنائر والدلائل من شأنها أن يؤمن الناس بها، ويقبلوا عليها، ويصدقوا بها، فإذا أعرضوا عن القرآن وكفروا به بعد هذا كله كان هذا أمراً عظيماً، ومن هنا جاء المجاز بهذه العلاقة مبيناً أنه يتساوى في هذا الأمر العدد القليل والكثير، جزء من الناس أو كلهم، فيكفي أن في الكفر به والإعراض عنه جرماً شنيعاً، وقدحاً بالقرآن بالغاً عظيماً، ومن هنا جاء المجاز بهذه العلاقة مشيراً إلى هذا المعنى، ودالاً عليه.

3: وهناك خاصية أخرى لهذا المجاز نابعة من تنوع علاقات هذا المجاز وتعددها، فنلحظ في كثير من علاقات هذا المجاز **أنها قائمة على التقابل والتضاد، فهناك الكلية والجزئية، وهناك الحالية والمحلية، وهناك السببية والمسببية،** والخاصية في هذا أن هذا المجاز ـ كما رأينا في آيات حديث القرآن عن القرآن ـ يعبر عن كثير من المعاني، ويحقق كثيراً من الأغراض بألفاظ أقل مما تؤديه الحقيقة، أو أي أسلوب آخر غير هذا المجاز، فكأن هذا الأسلوب قائم على تداعي المعاني، وورودها في ذهن المخاطب بها، أو القارئ لها، بسبب تلك العلاقات المتقابلة، فحينما تُذكر المسببية يرد على الذهن السبب الذي تسبب عنه، وحين تُذكر المحلية يرد على الذهن الحالُّ في هذا المحل، وحين تُذكر الكلية يرد على الذهن المقابل له، وهي الجزئية المرادة من هذا الكل، وكذلك العكس.(1)

وقد وُظفت هذه الخاصية لهذا المجاز في حديث القرآن عن القرآن في تحقيق الغرض من ذكر تلك الآيات، يتجلى هذا الأمر في حديث القرآن عن الغاية من نزول القرآن، كما تتجلى ـ أيضاً ـ في ذكر حال الناس معه، وانقسامهم حوله إلى مؤمنين وكافرين، كما تتجلى ـ أيضاً ـ في بيان أثر القرآن على الناس أجمعين، المؤمن منهم والكافر، كما تجلت هذه الخاصية ـ أيضاً ـ وبرزت في تلك الآيات وهي تتحدث عن مآل المؤمنين في الآخرة وتذكر نعيمهم بسبب إيمانهم بالقرآن، وإقبالهم عليه، وبرزت ـ كذلك ـ في هذه الآيات وهي تتحدث عن مصير الكافرين، وتذكر عذابهم في الآخرة بسبب كفرهم بهذا القرآن، وإعراضهم عنه.

(1) انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن: 161 .

الخصائص البيانية لأسلوب الاستعارة:

للاستعارة في كتاب الله شأن وأي شأن، ولها القدح المعلى في البلاغة والإعجاز، وقد وردت الاستعارة في كتاب الله كثيراً وتنوعت، والسرُّ في جمال الاستعارة في القرآن وحسنها يرجع إلى ما امتازت به من الخصائص التي لا تتوافر ولا تكون في غير القرآن الكريم.

من يتأمل الاستعارات التي وردت في حديث القرآن عن القرآن يجد أنها مشتملة على كثير من الخصائص التي تفردت بها، وتميزت بسببها عن غيرها، ومن هذه الخصائص مايأتي:

1 . الإيضاح: فتكاد تكون هذه الخاصية من أبرز سمات الاستعارة، وبيان ذلك: أن هذه الاستعارة تستخدم كثيراً من الألفاظ الموضوعة في أصل اللغة للدلالة على الأمور الحسية للدلالة على الأمور المعنوية، فما أكثر ما تأتي هذه الاستعارة لتمثيل ما ليس مرئياً بالمرئي، فتصبح المعاني محسوسة ملموسة، فينتقل السامع من حد السماع إلى حد البيان والمشاهدة لها بالبصر.

كما تجلت هذه الخاصية في قوله . تعالى .﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1)، فقد جاءت الاستعارة في هذه الآية وتكررت لإيضاح تلك المعاني المعنوية بمعانٍ محسوسة ملموسة مأنوسة لدى النفس البشرية تألفها، وتراها دائماً وتعايشها، فقد استُعيرت الظلمات للكفر، كما استُعير النور للإيمان، وكذا الصراط للإسلام، فهذه المعاني المعنوية لم تظهر ويتضح المراد منها إلاَّ من خلال هذه الاستعارة التي تضمنتها هذه الآية.

ولهذه الخاصية أثر مهم في معنى الآية، والغرض الذي جاءت من أجله، وذلك أننا حين نتأمل هذه الآية وننعم النظر فيها نجد أنها تتحدث عن القرآن، مبينة الغرض من إنزاله فقد نزل القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليهديهم كذلك إلى الإسلام، وهو الصراط المستقيم، فحتى يقف الناس جميعاً على هذه المعاني ويدركوها جيداً، ويفقهوها لا بد أن تكون هذه المعاني واضحة جلية بيِّنة مفهومة، ومن هنا جاءت الاستعارة لإيضاح هذه

المعاني، وجعلها مرئية محسوسة، فمَن منا لا يعرف الظلمة، أو يجهل حقيقتها، وشدة ظلامها، ومن منا من لا يعرف حقيقة النور، وشدة سطوعه، وذلك أن وضوح هذه المعاني وظهروها مما يدعو الناس إلى الإيمان بالقرآن والإقبال عليه حتى ينتفعوا به، وتتحقق لهم هذه الغاية التي نزل القرآن من أجلها.

2. وقد يكون لها علاقة بما قبلها، **حسن التشبيه الذي بُنيت عليه الاستعارات**، فقد كان التشبيه ممهداً لتلك الاستعارات، ودالاً عليها، ولا يخفى أن للتشبيه أثراً في الاستعارة قوةً ووضوحاً، ودلالة على المعنى المراد، كما تجلى هذا في تشبيه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، كما اتضح هذا الأمر جلياً في قوله . تعالى .﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾(الحجر: 94)، حين شُبه التبليغ بالصدع، وتكمن بلاغة هذه الخاصية أن هذا التشبيه ينقل أثره ودلالته إلى الاستعارة، ومن ثم إلى المعنى المراد تحقيقه من تلك الآيات التي تتحدث عن مكانة القرآن، والغرض من إنزاله، والأمر بالجهر به، وبيان حال الناس معه.

3. الدقة في اختيار الألفاظ، فألفاظ هذه الاستعارات قد تمَّ اختيارها وانتقاؤها على ما سواها لإظهار الاستعارة، وإبراز معناها، فلو تأملنا الاستعارات التي وردت في حديث القرآن عن القرآن لوجدنا ما يدل على هذه الخاصية، ويشير إليها، تأمل قول الله . تعالى . ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ (الحجر: 94)، وأنعم نظرك متدبراً متأملاً في هذه اللفظة (فاصدع) فإن في هذه اللفظة من الدلالات والإيحاءات والمعاني ما تتقاصر دونه الأفهام، وتتطامن عنه الرؤوس، وتقصر جميع الألفاظ كذلك أن تؤدي ما تؤديه هذه اللفظة من المعاني والدلالات، ولا يَسدُّ مَسدَّ هذه اللفظة غيرها، مهما بُذل في سبيل ذلك من محاولات، وتكمن خاصية الاستعارة في هذه اللفظة أن كل ما فيها من معان ودلالات قد تمَّ توظيفه لذلك المعنى العظيم الذي جاءت به الآية، وهو أمر رسول الله ﷺ بالجهر بالقرآن، والصدع به في أرجاء مكة كلها.

كما تتجلى الدقة في اختيار الألفاظ وتوخيها في قوله . تعالى .﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ

إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1)، فعند تأمل هاتين اللفظتين (النور والظلمات) اللتين وردت الاستعارة فيهما نجد أن في كل واحدة منهما من المعاني والدلالات ما تتقاصر عنه جميع الألفاظ لأداء هذا المعنى والقيام به، فضلاً عن دلالة جمع لفظة ﴿ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ، وإفراد لفظة ﴿ ٱلنُّورِ ﴾ .

ومن هنا تتجلى خاصية هذه الاستعارة في اختيار ألفاظها، وتوخيها على ما سواها لأداء معانيها، وتحقيق أغراضها وأهدافها .

4. تتجلى في الاستعارة التبعية بالحروف خاصية من خصائص الاستعارة في حديث القرآن عن القرآن، ووجه من وجوه بلاغتها، فحينما نتأمل ما ورد في هذه الآيات من استعارة في الحروف نجد أن القرآن قد وظَّف هذه الحروف في حديثه عن القرآن لبيان حال الناس مع القرآن، وانقسامهم حوله قسمين، كما يتضح هذا الأمر جلياً في قوله ـ تعالى ـ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزمر: 22)، فحينما نتأمل الاستعارة في هذه الآية ندرك عظمة إعجاز القرآن وبلاغته، فقد سخَّر الحروف الصماء وجعلها ناطقة في كشف معانيه، وتحقيق أغراضه.

يتجلى هذا الأمر حينما استعار حرف الجر (على) لصاحب الحق الذي شرح الله صدره للإسلام، وأقبل على القرآن، فقد بيَّن هذا الحرف ـ بدلالته على الاستعلاء ـ علو منزلته، ورفيع قدره في الدنيا والآخرة.

كما استعار لصاحب الضلال، المعرض عن هدي القرآن وبيانه حرفَ الجر (في) للدلالة على شدة انغماسه في الضلال، وتخبطه في الظلمات، بسبب إعراضه عن القرآن، وكفره به، فقد بيَّن هذا الحرف ـ بدلالته على الظرفية ـ حاله وواقعه الذي يعيش فيه في هذه الدنيا، كما أن فيه دلالة على سوء مصيره، وماله الذي ينتظره في الآخرة.

5. ومن خصائصها أيضاً: ذلك المسلك الذي سلكته بعض استعارات القرآن،

ونهجته في حديثها عن القرآن، في بيان موقف الكفار منه، يتجلى ذلك المسلك، وتلك الخاصية في الاستعارة التهكمية، فقد خرجت هذه الاستعارة عن أسلوب المدح والثناء والإطراء وسلكت مسلكاً آخر، وهو مسلك السخرية والتهكم.

وقد ورد هذا النوع من الاستعارات كثيراً في هذه الآيات في معرض حديثها عن المشركين والمنافقين، المعرضين عن القرآن، الكافرين به، وهذا مكمن حسنها، فقد أشارت إلى موقف هؤلاء بألفاظ تدل على المدح إلاَّ أنها استخدمت هذه المعاني في نقيضها من المعاني، فقد تضمنت تلك الألفاظ بين طياتها كل معاني الذم والإهانة والتحقير.

تتجلى هذه الخاصية في قوله . تعالى . ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ (الجاثية: 7 . 8) تأمل قوله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لتدرك بلاغة هذه الاستعارة، وخاصية هذا الأسلوب حينما جعلت العذاب الذي ينتظره بشارة يُبشر به، سخرية به واستهزاء وإذلالاً، جزاء وفاقاً، بعدما كان يستكبر عن آيات القرآن، ويعرض عنها، فجزاؤه اللائق به الإهانة، والسخرية والتهكم.

الخصائص البيانية لأسلوب الكناية:

من يتأمل أسلوب الكناية في القرآن يدرك أنه فوق طاقة بني الإنسان؛ وذلك لما ينطوي تحته من لطائف وأسرار، ولا يدرك هذا الأمر إلاَّ من تذوق حلاوة القرآن، وكان من أهل الفصاحة والبيان.

وعند تأمل الكنايات التي وردت في حديث القرآن عن القرآن نجد أنها قد اشتملت على كثير من الخصائص والمزايا التي تحقق الغاية منها، والهدف من ورائها، ومن هذه الخصائص:

1. تجسيد المعاني وإبرازها في صورة محسوسة تزخر بالحركة والحياة، فتزداد هذه الكناية بهذه الخاصية تعريفاً ووضوحاً، ورسوخاً في النفس، وتأكيداً، وذلك لما للأمور الحسية من علوق بالنفوس، وتأثير فيها .

تتجلى هذه الخاصية عندما نتأمل قوله . تعالى .﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (البقرة: 174) ، فحينما نتأمل قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، نجد أن هذه الكناية جاءت مبرزة المعنى في صورة محسوسة، فقد كُني عن شدة الغضب عليهم ومقتهم بأمر واضح جلي، وهو عدم تكليم الله لهم، وإعراضه عنهم.

وتكمن بلاغة هذه الكناية بهذه الخاصية أن فيها إظهاراً ودلالة على عظم جرم هؤلاء القوم، وشناعة ما أقدموا عليه، فاستحقوا بذلك العذاب العظيم، والجزاء المهول اللائق بهم، وبأفعالهم المنكرة مع القرآن، فكان في هذه الخاصية مزيد من إظهار ذلك المقت الشديد عليهم من موقفهم من القرآن .

2.: قوة التأكيد، والمبالغة في إثبات المعنى المراد بيانه وتقريره، وذلك أن هذه الكناية تعرض المعنى مصحوباً بدليله، مقروناً بحجته وبرهانه .

تتجلى هذه الخاصية حينما نتأمل قول الله . تعالى . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (الحج: 72) فحينما نتأمل قوله ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾ نجد أن الله . سبحانه وتعالى . كنى بهذه الألفاظ عن شدة عداوة أولئك الكفرة الفجرة للقرآن الكريم، ومدى حقدهم وحنقهم عليه، هذا المعنى الذي جاء القرآن بذكره وبيانه لم يأتِ غفلاً من البينات والدلائل التي تؤكده، فقد جاء مصحوباً بما يدل عليه، وبالبرهان الذي يشير إليه، ويظهره ويؤكده، وهو أن هؤلاء القوم من شدة ذلك الحقد، وتلك العداوة قد بلغ بهم الحقد والبغض أمراً عظيماً حتى إنك ترى في وجوههم المنكر، والغيظ من هذه الآيات ومن يتلوها عليهم.

كما تتجلى في هذه الكناية تجسيد هذا المعنى، وإبرازه بصورة حسية مُشاهدة، ومن هنا تجلت بلاغة هذه الكناية بهذه الخاصية حينما ذكرت هذا المعنى وأكدته بما لا يدع للشك فيه طريقاً ولا مجالاً؛ لأنها ذكرت هذا المعنى وأوردته بالدليل الدال عليه، والمؤكد له، وأتبعته بالحجة المبينة له، ومن هنا كانت الكناية بهذه الخصائص أبلغ من التصريح في مقاماتها، وأقوى من حيث إثبات هذه الحقائق وتأكيدها.

3. الإيجاز: وهذه الخاصية وإن كانت ميزة تتجلى في كثير من الأساليب القرآنية، إلاَّ أن للكناية منه نصيباً وافراً، وحظاً موفوراً .

تتجلى هذه الخاصية حينما نتأمل قول الله . تعالى . في حديثه عن المشركين الذين ارتابوا ويرتابون في القرآن، فقال لهم بعدما تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن .﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (البقرة: 24) فقد كنى بهذه الآية حين أمر باتقاء النار عن ترك العناد والمكابرة عند ظهور

المعجزة لهم والعجز بالإتيان من مثل القرآن، فقد جاءت الكناية في هذا المقام لِما فيها من إيجاز بديع، واختصار لطيف، فقد أغنت هذه الكناية عن التكرار والتطويل، فلما كان المقام مقام إيجاز جاءت الكناية اقتضاء لتطلب المقام لها، فتأمل بلاغة هذا الأسلوب الكنائي كيف اشتمل على هذا الإيجاز، فكان بحق خاصية من خصائص هذه الكناية في هذا الكتاب العظيم.

وللدكتور محمد شيخون وقفة نفيسة مع هذه الآية أبرز من خلالها ما اشتملت عليه هذه الكناية من خصائص تفردت بها، وميزتها عما سواها من كلام البشر أجمعين، يقول: ((هذه الآية كناية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة، أي لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة، تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من جمال التعبير، وروعة التصوير، ولطافة الإيجاز، إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير، وقوة التأثير، ثم إن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكري المجرد في صورة محسوسة ملموسة، ولم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص بل تعداه إلى التصيير والتحويل، فحوله إلى نار ملتهبة متأججة متوهجة، أرأيت أعجب من هذا التصوير، ولا أروع وألذ من هذا التعبير؟ إنه الإعجاز يلبس ثوب الكناية فتنحني له هامات البلغاء، ويثير في النفس أسمى آيات الإعجاب))[1]،ولا عجب أن تثير هذه الكناية هذا الإعجاب، وتوقظ في النفس هذا الشعور، فهذا هو شأن هذه الكناية في كتاب الله، وذلك شيء من خصائصها، تبهرك بجمالها، وتأسرك بسحرها وبيانها، وتعجز عن محاكاتها.

الخصائص البيانية لأسلوب التعريض:

---

(1) الإعجاز في نظم القرآن: 109 .

لا تقل بلاغة التعريض عن بلاغة الكناية، وأثرها في المقام الذي يستدعيها، فله من الخصائص والمميزات ما يجعله يفوق غيره من الأساليب؛ لكونه أخفى من الكناية؛ وذلك لاعتماده في دلالته على السياق دون اللفظ، ومن هنا كان له الأثر البالغ في النفوس.

وقد ظهرت خصائص هذا الأسلوب، وتجلت في كتاب الله، كما كان لهذا التعريض . بما أُودع فيه من الخصائص . الأثر الكبير في حديث القرآن عن القرآن في أداء معانيه، وفي تحقيق أغراضه وأهدافه، يتجلى هذا الأمر حينما نتأمل السياقات والمقامات التي ورد فيها التعريض في تلك الآيات، فنجد أن هذا الأسلوب يأتي للكشف عن موقف المشركين من القرآن، وبيان حالهم معه، وموقفهم منه، يكشف هذا الموقف، ويذكر تلك الأحوال تعريضاً لا تصريحاً، وهذا مكمن بلاغته، وسرُّ إعجازه، وأكبر خصائصه، فقد كان وسيلة ناجحة وناجعة في الوقت نفسه في ذكر ما عليه القوم من الجحود والإنكار والإعراض والكفر بالقرآن، فقد كشف هذا التعريض ما تكنّه صدورهم من العداء للقرآن الكريم.

كما كان هذا التعريض أداة طيِّعة كشفت حقيقتهم، وبيِّنتْ ما هم عليه من الغفلة والإعراض عن القرآن، وما جاء فيه من البينات والهدى، فقد كشف التعريض هذا كله وبيَّنه، وذكر حالهم معه، وبيَّن موقفهم منه، وقد تمَّ هذا كله دون مواجهة لهم بذلك، أو مجابهة، وإنما كان يذكر هذه المعاني كلها تعريضاً، فيدرك المؤمنون المراد منها، وما تهدف إليه، دون أن يدرك المشركون ما وراءها، وما الهدف منها، وما غاياتها.

ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الأسلوب وأثره في حديث القرآن عن القرآن، خاصة في مقام ذكر موقف الكافرين منه، وبيان حالهم معه.

الخاتمة

وبعد: فهذه خاتمة هذا المشوار، ونهاية هذه الدراسة المباركة لآيات حديث القرآن عن القرآن للنظر في تصويرها البياني التي تضمنتها، وقد كشفتْ هذه الدراسة كثيراً من جوانب التصوير البياني الدالة على عظمة القرآن الكريم، والكاشفة عن إعجازه التي بسببها عجز القوم عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأحب أن أشير في هذه الخاتمة إلى بعض الحقائق المهمة المتعلقة بالتصوير البياني في هذه الآيات، ومن أهمها ما يأتي:

أولاً: لابد أن يُعلم أن هذه الأساليب كلها . أياً كان نوعها . لم تكن مقصودة لذاتها، تُقصد قصداً، ويُهدف إليها، فلم يكن التشبيه يأتي لذات التشبيه، ولا الاستعارة لذات الاستعارة، ولا الكناية لذات الكناية، وهلم جراً، بل كانت هذه تأتي لأهداف عظيمة، ومقاصد جليلة، فما هذه الأساليب إلاَّ وسائل لغايات عظمى سامية، قد وُظفت لإظهار عظمة القرآن الكريم، وبيان مكانته، والكشف عن الغاية من نزوله، والحديث عن موقف الناس منه، وبيان حالهم معه، وانقسامهم حوله، وغير ذلك من مجالات هذه الآيات وموضوعاتها.

تتجلى هذه الحقيقة وتتضح حينما ننظر في السياق الذي وردت فيه هذه الأساليب البيانية، والغاية التي جاءت الآية كلها من أجلها، وحينما ننظر في آيات حديث القرآن عن القرآن التي وردت فيها هذه الأساليب البيانية نجد ما يدل على هذه الحقيقة ويصدقها.

ثانياً: أن هذه الأساليب البيانية تأتي في المقام الذي يستدعيها ويتطلبها دون سواها، وهذا مكمن بلاغتها، وسر إعجازها، فتعد هذه الأساليب عناصر رئيسة في معاني تلك الآيات، وبناء تراكيبها، ومن هنا اكتسبت الأساليب البيانية في هذه الآيات قوة وجمالاً في المقام الذي ترد فيه.

ومن هذه الخصائص كلها مجتمعة يظهر سرُّ جمال هذه الأساليب، وقوة أثرها وتأثيرها

في النفوس، فلا عجب بعد هذا كله أن تُثير هذه الأساليب الإعجاب في نفوسنا، ولا غرو أن تُوقظ شعور العظمة فينا وتُحركه.

وفي ختام هذه الدراسة أوصي بأن تتجه الهمم والنفوس إلى الدراسات البلاغية للقرآن الكريم؛ فإن في ذلك أجراً عظيماً، وعلماً غزيراً، وذخائر بيانية لا تنفد؛ إذ لا تنقضي عجائبه، وسيظل كتاباً مفتوحاً يفيض بالحكم والأسرار أمام الباحثين والمتأملين.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

كتبه

عبدالعزيز بن صالح العمار

فهرس المصادر والمراجع

- . القرآن الكريم .

1. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير بيروت، ط الثانية: 1414 هـ.
2. أدوات التشبيه: دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د. محمود موسى حمدان، مطبعة الأمانة القاهرة، ط الأولى: 1413 هـ.
3. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
4. أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة، ط الأولى:1412هـ.
5. أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني، د.عمر محمد باحاذق، دار المأمون للتراث دمشق، ط الأولى: 1414 هـ.
6. الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم، د.محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط الأولى: 1398هـ.
7. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، لمحمد بن علي الجرجاني، تحقيق: د. عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب القاهرة: 1418 هـ.
8. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، 1413 هـ.
9. الإعجاز في نظم القرآن، د. محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط الأولى: 1398هـ.
10. إعجاز القرآن، لأبي بكر محمد الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة ، ط السادسة.
11. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط التاسعة: 1393هـ.
12. الأقصى القريب في علم البيان، لمحمد بن محمد التنوخي، القاهرة، 1327 هـ.
13. الإكسير في علم التفسير، للطوفي سليمان الصرصري، تحقيق: د. عبدالقادر حسين، المطبعة النموذجية.
14. إملاء ما منَّ به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الحديث القاهرة.

15. الإيضاح ، للخطيب القزويني، إحياء الكتب الإسلامية بيروت.
16. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود.زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: 1413 هـ .
17. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث .
18. البرهان في وجوه البيان، لإسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، ط الأولى: 1387 هـ .
19. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ،كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، مطبعة المعاني بغداد، ط الأولى: 1394هـ.
20. بغية الإيضاح، عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة إحياء الكتب الإسلامية، بيروت.
21. البلاغة فنونها وأفنانها، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان عمان، ط الثانية: 1409هـ.
22. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط الثانية: 1408 هـ .
23. البلاغة الواضحة، تأليف علي الجارم و مصطفى أمين، دار المعارف، ط الحادية والعشرون: 1389 هـ.
24. البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار المعارف القاهرة، ط الثالثة:1992م.
25. البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان، عالم الكتب القاهرة، ط الأولى: 1413هـ.
26. البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط الخامسة: 1405 هـ.
27. تأويل مشكل القرآن، لأبي عبدالله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط الثانية: 1393 هـ.
28. التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور.
29. التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة القاهرة، ط الرابعة: 1418 هـ.
30. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط العاشرة: 1408 هـ.

31. التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط السادسة:1400 هـ.
32. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام الرياض، ط الأولى: 1413 هـ.
33. التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
34. التفسير القيم، لابن القيم، تحقيق محمد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.
35. التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الثالثة.
36. تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار،لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، 1414 هـ .
37. تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، عالم الكتب، ط الأولى: 1406 هـ .
38. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام ، دار المدني بجدة ، 1408 هـ.
39. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط الثالثة.
40. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى: 1418 هـ.
41. حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
42. حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
43. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، دار الطباعة العامرة الاستانة، 1286هـ.
44. حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت .
45. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة القاهرة، ط الأولى: 1413 هـ.
46. خصائص القرآن الكريم، د. فهد الرومي، ط الرابعة: 1409 هـ.
47. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لشهاب الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالجواد، ود. جاد مخلوف جاد، ود. زكريا عبدالمجيد النوتي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: 1414هـ.
48. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، دار المدني بجدة، ط الثالثة: 1413 هـ.
49. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الرابعة: 1405 هـ.

50. سنن الترمذي، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، استانبول تركيا، أشرف على التعليق والطبع عزت عبيد الدعاس.
51. شروح التلخيص، نشر أدب الحوزة ، توزيع مكتبة دار الباز.
52. صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا.
53. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوي، دار الفكر العربي ، ط الثانية.
54. الصورة الفنية في المثل القرآني ، د.محمد حسين علي الصَّغير، دار الهادي بيروت، ط الأولى: 1412هـ.
55. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، دار الكتب العلمية بيروت 1402 هـ.
56. علم البيان، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية بيروت، 1405هـ.
57. علم البيان دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط الثانية: 1418هـ.
58. فتح القدير الجامع بين فين الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر بيروت، 1403 هـ.
59. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، للإمام سليمان العجيلي الشهير بالجمل، ضبطه وخرج آياته: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلية بيروت، ط الأولى: 1416 هـ.
60. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف الأسكندرية 1988.
61. في ظلال القرآن ، سيد قطب: دار العلم للطباعة والنشر جدة، ط الثانية عشرة: 1406هـ.
62. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، للإمام محمد بن أحمد الكلبي، دار الكتاب العربي، ط الثانية: 1393 هـ.
63. الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط الأخيرة: 1392هـ.
64. الكناية والتعريض: لأبي منصور الثعالبي ، تحقيق: الدكتورة: عائشة حسين فريد، دار قباء للطباعة، ط الأولى: 1998.
65. لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الثالثة: 1413 هـ.

66. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، قدَّمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
67. مجاز القرآن ، لأبي عبيدة، عارضه بأصوله وعلق عليه: د. فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
68. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع: عرض وتحليل ونقد، للدكتور عبدالعظيم مطعني، ط: الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة.
69. محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
70. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: 1413هـ.
71. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك و مروان سوار.
72. معاني القرآن ، للفراء ، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، د. عبدالفتاح شلبي، وعلى النجدي ناصف، دار السرور.
73. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث القاهرة ، ط الأولى: 1414 هـ .
74. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب،مكتبة لبنان، ط الثانية: 1996 م .
75. المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى: 1413هـ.
76. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين بن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل بيروت ط الأول: 1411 هـ.
77. مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، المكتبة العلمية الجديدة بيروت.
78. مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، لأبي عبدالله جمال الدين المقدسي، الشهير بابن النقيب، تحقيق: د. زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي القاهرة، ط الأولى: 1415 هـ.
79. من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، دار نهضة مصر القاهرة.
80. من بلاغة النظم القرآني، د .بسيوني عبدالفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلامية، ط الأولى: 1413 هـ.
81. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، نشر أدب الحوزة، توزيع مكتبة الباز، طُبع ضمن شروح التلخيص.

82. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم الكويت، ط الثانية: 1390هـ.
83. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ط الثانية: 1413 هـ.
84. النظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر بن عبدالرحمن الخنين، مكتبة التوبة الرياض ط الأولى: 1416 هـ.
85. النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرماني ، دار المعارف القاهرة ، ط 4، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

الرسائل الجامعية

1. البلاغة عند الإمام ابن تيمية دراسة وتقويماً ، رسالة ماجستير ، إعداد الباحث إبراهيم بن منصور التركي ، 1417 هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية ، قسم البلاغة.

الدوريات والصحف

1. مجلة جامعة الأزهر، للدراسات الإسلامية والعربية، فرع المنوفية، العدد الثاني عشر.
2. مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثالث عشر ، 1413 هـ.

فهرس المحتويات



السيرة الذاتية

الاسم: عبدالعزيز بن صالح بن عبدالعزيز العمّار.

الجنسية: المملكة العربية السعودية، الرياض،

مواليد: عام 1393هـ، 1973م.

الشهادات العلمية:

- ليسانس في اللغة العربية من كلية اللغة العربية في الرياض، عام 1416هـ بتقدير امتياز.
- الماجستير في البلاغة القرآنية بتقدير امتياز عام 1421هـ.
- الدكتوراه في البلاغة النبوية مع مرتبة الشرف الأولى عام 1425هـ

الخبرات العلمية:

- محاضر في كلية الشريعة واللغة العربية في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة لمدة أربع سنوات.
- محاضر في كلية اللغة العربية في الرياض.

المؤلفات:

1- التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن.

2- الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات المكية والمدنية في حديث القرآن عن القرآن.

كتب تحت الطباعة:

1- آيات التحدي في القرآن الكريم: دلالاتها وإيحاءاتها.

2- الحروف في القرآن الكريم: أنواعها وبلاغتها.

بالإضافة إلى المشاركة في المجلات والصحف والمنتديات.

البريد الإلكتروني : a_s_alammar@hotmail.com